رواية مارينوس راهب دير قنّوبين

بقلم الاب مبارك ثابت اللبناني
رئيس دير المخلص في البرامية

مارينا الاهدنيّة فتاةٌ في السنّ الخامسة عشرة مليحة الصورة رشيقة القدّ ذات وجهٍ ابيض مستدير كالبدر عند اكتماله ، بعينين واسعتين كلوزتين لامعتين كسراجين سرقتا من البحر زرقته ومن الفضة بياضها يحرسها حاجبان كسيفين في جبين ناصع عريض كشف عنه شعر رأسٍ بلون الذهب مرسلٍ على الكتفين والظهر كوشاحٍ نسجه من خيوط الحرير والنضار ينتهي عند اسفل الظهر وفي اطرافه جعودة كجواهر مدلاّة بجبال ثمسية صفًّا منظّماً من الجنب الى الجنب.

جلست على مقعدٍ من مخمل فستقيّ اللون امام احدى نوافذ قاعتها فتجلّت لها مشاهد تسرق النظر بجمالها وتخلب اللبّ برواتها . فانطلق فكرها في جوّ فسيح من التأمل الواقع بين البسطة والانقباض والمسرّة والاغتمام : هذا الربيعُ قد خلع من ملابسه على الدّوح كلّ حلةٍ قشيبة خضراء . ومدّ على الحقول بساط نبته الواسع مطرّزًا بنقوش الازهار المتنوعة الالوان . تبلّج جبينُ الفجر وافترّ ثغرُ الصباح واوشكت الغزالة ان تسفر عن محيّاها المشرق البهيّ . وتنقّبت وجوه النجوم وغسلت السماء وجهها بماء الصبح فانعقد الندى لؤلؤًا على العشب والزهر والورق . وهبّ النسيمُ من رقادهِ كاشفًا عن جسمه الناعم لحافَ الظلام . وجال في الفضاء جولته المنعشة فايقظ الطيعة من سبات سكونها الليلي . ولاثمَ الارز العظيم فترنّحت معاطف اغصانه ، فهزا صدى حفيف اوراقها في الوادي المقدس يطرب كل شيء حتى الصخور . تأملت مارينا في ما ترى وتسمع ويقع في حسّها من هذه البدائع ، فارتفعت بعقلها وقلبها الى ما فوق وقالت : سبحانك اللهمّ يا مبدع هذا الكون الجميل ، تباركتَ من جميع مصنوعات يديك . ان كان لمصنوعاتك مثل هذا الجمال فكيف بجمال جلالك يا عين الجمال ايها الجالس على عرش الازل . ثمّ انطوت على نفسها وقالت : كل ما اراهُ جميل ،

كل ما اسمهُ لذيذ كل ما انتشقهُ من نسيم هذا البلد طيّبٌ منعشٌ مسكيٌ . فما لقلبي لا يبرحه الهمّ . لقد أُوتيتُ من المال ما لا ينفد على الانفاق ومن الصحة ما لا اطلب مزيدًا عليه . والعزُّ والكرامة يحفّان بي في هذه الدار ، ولي الحظُّ الاوفر من اكرام اقاربي ومواطنيَّ . فماذا يعوزني ؟ اوّاه ! ماذا تنقصني كلّ هذه النعمة وانا بلا أُمّ ! الأُمّ اثمن من كلّ ما تحت السماء . حقًا ان الدنيا أُمّ . وانا اين أُمي ؟ اختطفها الموت اذ صار قلبي يعرف ان يحبّها وعقلي ان يقدّر محبتها وفائدة وجودها . يا ليتَ هذا كلّ البلاء . فاني من قبل ان تخمد جذوة حزني عليها ، مُنيت بفقد والدي المحبوب ، ذلك الوالد الحنون الذي ورث محبة والدتي لي فصارت محبته محبّتين وتحوّلت محبتي اياها اليه فصرت احبُّهُ باعتبارين ، وكان لي به بعض التعزية في حزني المديد . ولو انَّ الله نقلهُ اليه لكان يكون لي في اليأس شكل راحة . لكنّه توارى منذ عامين فلا ادري اين يكون ولا ما صار اليه . ولو ان هذا كلّ عذابي لعذّلتهُ بالصبر والتسليم ، لكنَّ خاطرًا يدور في خلدي ، يسلبُ راحتي ولا طاقة لي بصدّه ولا بقبوله بالوجه القطعي . ما ألمّ ما انا فيه من تردّد وارتياب !

وفيما هي على هذا الحال من التأمل الموجع والذكريات المحزنة ، اذا خادمتها رفقة تدخل اليها بطبق من فضّة عليه طعام الصباح القته على اسكملة من خشب الارز مرصع بالفسيفساء ذات الالوان . ووقفت لديها وقالت : اسعد الله صباح سيدتي العزيزة ، يا حياتي أما تفطرين ؟ ما لكِ واجمة يا روح رفقة . أغمًّا تشكين ام ألمًا ؟ — قالت : لا غمًّا ولا ألمًا . في الرأس افكارٌ من جهة المستقبل . افكارٌ متناقضة . وانا اميلُ الى فتنةٍ واخشى الخطأَ في الترجيح . ولأن اخشى البتَّ أولى . وليس من يعينني على الخروج من تردّدي في الاختيار . قالت الخادمة : هل ترى سيدتي ان تفتح قلبها لهذه الخادمة الامينة التي استقام ولاؤها لهذا البيت مدى ثلاثين عامًا . قالت : لستِ يا رفقة خادمة في هذا البيت انما انت فيه ربّة . انتِ مربيتي بمثابة امي فلا يحسن ان اكتم عنكِ ما يخاطري من شؤون . امّا ولستِ تستطيعين شيئًا في امري فلا ارى فائدةً بايقافكِ عليه قبل الاوان. ارفعي هذا الطعام فقد اخذتُ النفس بان اصوم ثلاثة ايام التماس مشورة الرب بالصوم والصلاة.. امضي لسبيلك وصلّي

لاجلي ولا تأذني لاحدٍ بالدخول اليَّ . فاستولت الدهشة على رفقة وقالت : تصومين ثلاثة ايام ! او لا تعلمين ان هذا الصوم الطويل يهزل بدنكِ الناعم ويذهب بنضارة وجهكِ المشرق ويبدل بالصفرة حمرة وجنتيكِ . بعيشكِ يا جنَّة هذا البيت لا اذبلتِ غصن صبائكِ الرطيب . قالت : لا تشفقي عليَّ من الصوم فانَّ معهُ زيادة في صحة البدن ونضارته . قد عقدتُ القلبَ عليه فهبات ان أحلَّ ما عقدت . اذن صلّي ليتقبل الله صومي ودعائي ويُلهمني ما يريد . قالت : خيرًا ألممت وملتمسكِ نلتِ وانصرفت عنها وهي تقول في نفسها . ما هذا الذي تلتمسهُ من الله ، ما هذا المستقبل الذي تطلبه وهو مطوم وفي حكم الحاصل . العلّها على ريبٍ من محبة فريدٍ ابن عمها ؟

اطرقت ماريًا هنيهةً ثمَّ رفعت عينيها جهة السما. وقالت : اللهمَّ انت ابي وامي واخي واختي شئتَ فاخذتَ مني والدتي وانا حديثة السن فسلّمتُ اموري اليك . ثمَّ شئتَ ان يخلّيني والدي فتوارى وانا في اشدّ الحاجة اليه ، سألتُك ان تردَّهُ عليَّ او تهديني اليه فابت حكمتك الَّا ان اكون وحيدةً فريدةً سجينةً لا تعزية لي في هذا الصرح الَّا في التوكل عليك يا كثير المراحم والتعزيات . والآن انت ترى مرارة نفسي ، وحيرتي بادية لعينيك ، فامدد يدك وانشلني من لجة هذا الشقاء ، واعلمني ما مشيئتك القدوسة لاعمل بحسبها ، انا عمياء لا ابصر الطريق الذي يوصلني اليك يا غايتي القصوى . من يرشدني اليه سواك . ان اخدمك في صف العذارى ، فخذ بيدي الى حيث تشاء . او في صفّ ربات البيوت المتقيات . فما هذا الشعور بنفسي المخالف لشعور امثالي من الفتيات .

وبينا هي في هذا الشأن من التأمل والصلاة والتردُّد في الاختيار فُتح الباب بغتةً واذا ابو يوسف جدّها لابيها يخطو نحوها وفي ثغره ابتسامة الحب الوالدي فوقفت اكراماً له وبعد ان تبادلا التحية قال : ما هذا الابطاء عليكِ يا ولدي ، غمّني وجدّتك ان لم تجيئي فنتراكِ ونفرح على ما عوّدتنا كل صباح .

ــ عذرًا يا سيدي الجدّ المحبوب . وطبعت قبلةً حارَّةً على يده وقالت : على غير قصد كان ابطائي عليكما اليوم فاصفحا .

ــ انتِ يا ولدي نور اعيننا ولذة عيشنا وكاشفة غمنا فلا طاقة لنا بتحجبك . وايّ يوم يطلع علينا صبحهُ دون مطلع وجهك المضيء فليس من ايامنا ذلك

اليوم ، ها حدثك المعدة نفسك ان تحملها الخدم اليك لانها لا تصبر على عيابك فهل تمضين اليها ام تجيء هي لتراكِ ؟

ــ يا لرقة حنانها ، بل انا آجيء اليها على الرأس والعين . انهـا تباركني فلا أضل سواء السبيل .

ــ ما شغلكِ عنا يا ولدي اتشكينَ من ألمٍ ؟ لا والحمـد لله . لكني اغرقتُ في الصلاة فلم انتبه حتى دخلتَ اليَّ .

ــ الاغراق في الصلاة سبيلكِ منذ طفولتكِ ، اما سهوكِ عن جدّيكِ فجديد.

ــ افكارٌ متنافرة تراكمت عليَّ فصرتُ الى الحيرة فاخذتُ التمس الهداية من الله .

ــ احسنتِ يا بنيَّة . وان شئتِ الافادة من حنكة جدّكِ فشورتي حاضرة ولعلّها تخرجكِ من حيرتك .

ــ لا اشكُّ في أصالة رأيكَ وحكمة مشورتكَ ، غير انَّ من الاحوال النفسية ما لا يُحسن البتَّ فيها غير الله .

ــ لا يفوت علمكِ ان الله يشاء ان يكلّم النـاسَ بالناس فقد اكون انا اداة مشيئته لديكِ .

ــ لا نكير ، سوف التمس مشورتك بعد استشارة الله بالصلاة .

ــ انتِ يا ولدي ذات فطنةٍ وفهم ، فما تـأليـن الّا الخير ، فليعطكِ الربُّ ما تـأليـن ، هل رأيتِ فريدًا ابن عمك هذا الصباح ؟

ــ لا . فقد قلت لرفقة ان لا تأذن لاحدٍ بالدخول اليَّ اليوم .

ــ اذن . لهذا صرفتهُ فاتتا شاكيًا قلقهُ اذ لم يتمكن من زيارتكِ على عادته .

ــ ما كنتُ لارضى له هذا الاضطراب . ألم يزل في دار جدّي حتى الساعة؟

ــ لن يبرحها حتى اعود باخبارك اليه . انَّ قلقـهُ لبادٍ في وجهه المتجهم ونظرته التائهة واستيلاء الجمود على شفتيه .

ــ لتطب نفسهُ ، اني بخير ، لا يأخذني ألمٌ ولا غمٌّ ، لكني بحاجة للخلوّ الى نفسي فلا احبُّ ان احدّث اليوم انساناً كائناً من كان .

ــ انّى له الصبرُ على احتجابك طيلة هذا النهار .

ـ اذن ، ما يصنع لو حيل بيني وبينهُ مدى العمر ؟

ـ ألعلكِ تصرفين قلبكِ الى سواه .

ـ لا إلى سواه من الرجال ، بل احبُّ ان انظر في دعوتي تجنُّب الضلال.

ـ ذلك اليكِ . غير ان علامات الدعوة لا تُحصرُ عادةً في نزوع النفس الى حالة دون حالة اخرى وانما كان لهذه فضلٌ على تلك من وجوهٍ لا تظهر لعين الناظر في بادئ الرأي اذ يقع ان يكون ذلك النزوع وقتيًا ولا صلة له بمشيئة السماء ، فمن علامات الدعوة ايضًا رغبة الوالدين وانتِ لا تجهلين ما رغبة ابيكِ وجدّيكِ .

ـ ان كان الولد نفسهُ لا يسلم من الغرور في امر دعوته فكيف بوالديه واقاربه في شأنِ مرجعه الاول اليه .

ـ الفطنة وتقوى الله تعصمانكِ من خطأ الاختيار . امّا انا العجوز فأيّة تعزية تبقى لنفسي ان اخترتِ العُزلة في دير. انكِ ان فعلتِ فلتنزلنَّ شيخوختي الى الحفرة مكفنةً بالحزن واليأس .

ـ لا تجزع يا سيدي الجدّ العزيز فانَّ من غيَّب ابي واملاكَ عنهُ بي يعرف كيف يعزّيك اذا قضت علينا حكمتهُ بالفراق . فتصعّدت من صدر جدّها أنةٌ حامية وتدحرجت من عينيهِ نقاط الدموع وقال بصوت متزعزع ، هيهاتِ يا ولدي هيهات ! لئن بنتي ليكوننَّ العزاء من نفسي على بُعد السماء من الارض. فبتربةِ ابيكِ المحبوب لاقصتِ ظهر هذا الشيخ الذي اثقلتهُ السنون . قال هذا وهمَّ بالخروج فاخذت ماريًا بذراعهِ الى الباب ولثمت يدهُ وقالت : طاردِ اليأسَ بالرجاء يا جدّي العزيز ، فانا عكاز شيخوختك ما دمنا في قيد الحياة .

قامت رفقة امام سيدتها وقالت : سيدتي . خالكِ جبُّور في الباب فهل تأذنين ؟ ـ خالي : عهدي به في طرابلس ! قالت رفقة : فما قدومهُ فما تستغربين ؟ ان يجيء يومَ عرس ابنته . ـ أرجئ العرس الى غدٍ . اتعرفين ما سبب قدومه ؟ ـ اوقف جدّيكِ على السبب واحبَّ ان يحدّثكِ . ـ ادخليه انهُ شقيق والدتي المرحومة ، يلذّني ان ارى في وجههِ ملامح محيّاها اللطيف .

دخل جبُّور وحيّا ابنة اختهِ وقال : كيف انتِ يا عزيزتي ، يا ملحة الجمال والادب ؟ قالت : بخيرٍ يا سيدي الخال ولي برآك فرحٌ عظيم . نبأ

سارٌ عني بسلامتك ان شاء الله . قال : ما احمل اليك الا ما يسرّ . تعلمين ان ابنة خالك يُبارِكُ اكليل عرسها في هذا النهار — نعم . فباليُمن والاقبال والرفاه . — لكننا اضطررنا لارجاء العرس الى اجلٍ قريب — جئتم من تقرر ذلك الاجل ابتسامة سعدٍ وهناء . — ما صار الارجاء الا لعرض امرٍ عليك. ها انا لديك . قال : أُحبُّ ان لا يغيب من سمائي قمرٌ حتى يطلع فيها قمر . قالت : لا خلتْ سماؤك من اقمارٍ تشعُّ انوارها ليل نهار . قال : اريدكِ زوجةً للطيف ابن خالك وقد حدَّثتُ جدّيكِ فما كذَّبا رجائي . لكنها ارسلاني اليكِ . — قالت : الزواجُ سنَّةُ الخالق ، لكنهُ قيدٌ لا يحلُّ منه غير الموت . فاتيانهُ على غير التروّي مجلبة للندم . — قال : ليس لطيف بالغريب عنكِ واخلاقهُ كاسمه لا أرقّ منها ولا أسمى . ومحبّتهُ لكِ اغنى عن كلّ بيانٍ . وثروتكما لا تُضبط بحساب. وموعد الاقتران غدًا ، فاذا تمَّ لي ان افرح بزواج ابني وبنتي معًا فيا لسعادتي ويا لهُ من يومٍ سعيد . قالت : لا انكر لطيفًا لسوء فهو ولا ريب خير نصيب . امَّا ان تأخذ مني رضًا او رفضًا في هذا الوقت القصير فذلك وراء المستطاع . دعني اولًا اتأكد من دعوتي . — قال: ماريا ابنتي ! ما كنت لاتوقع منكِ مثل هذا الجواب . ان كنتِ تكرهين الاقامة في بيت خالكِ فلطيف يقيم معكِ في بيت ابيكِ . قالت : البيتان واحدٌ في نظري ، غير ان عملَ العمر لا يُبتُّ فيهِ بساعة . — قال : آفةُ الاعمال تسويفها . قالت : في العجلة الندامة — وقالت رفقة : ليس بعاقلٍ من يجازف في امرٍ خطير . فقال جبُّور : أأنتِ علينا يا رفقة ؟ — كلّا يا سيدي . بل رأي سيدتي استصوبتُ . قال : لان تسمع مني وانا خالها أولى. فقالت ماريا : مشورة القلب قبل كلّ مشورة . قال : الا تحبين لطيفًا ؟ — ألا أُحبُّ اخي ؟ قال : او لا ترضينهُ شريكًا في الحياة ؟ قالت : ليس الجواب بحاضر ، دعني اتبصر شهرًا . قال : شهرًا ! وبعد شهر ايكون الجواب نعم ؟ — لا أدري . — اذن . اترفضين ؟ — استمهلُ .

— الرفض والاستمهال اخوان .

— كلاهما خيرٌ من الإخلاف بالوعد .

جبُّور : اترديني اتعثّر باذيال الحيية .

مارتا : ما بجوابي ما يبعث على خيبةٍ او يأس .
جبور : الا كرامة لحالك ؟ مارتا : كلّ كرامة واعظام .
جبور : الجواب النهائي ؟ مارتا : في نهاية شهر .
جبور : لا تضربنّ على حديدٍ باردٍ . وهمّ بالذهاب .
مارتا : بيتك يا خالُ بعيد . أفلا تبيت عندنا فتستريح من تعب الطريق.
جبور : الناس في انتظاري . الى اللقاء !
مارتا : رافقتك السلامة .

مضى جبور وهو يتمتم ويدمدم متجهّم الوجه يابس الشفتين . وتكلّمت مارتا على مسمع من رفقة قالت : مضى خالي تتأجج بين ضلوعه نار الاكتئاب. ما اخشنتُ لهُ الحديث فانحو على نفسي باللام . لو سألني غير الاقتران بابنه لما قلت الّا لَيك . امّا الزواج فلا أرى من نفسي تزوعاً اليه . رفقة : بحكمة تصرفت . لانهُ ان كان الزواج دعوتك فلأن تصيري الى فريد ابن عمك أولى . سكتت مارتا هنيهةً . ثمّ قالت لرفقة : دعني الساعة وحدي لاستشير الله في دعوتي . وفيما هما في هذا الشأن قُرع الباب . فقالت : انظري يا رفقة من القارع . فنظرت وقالت : فريد — قالت : اصرفيه الى غدٍ ، وكانت من فريد قفزةٌ فاذا هو تجاه مارتا حيّاها وقال : الى غدٍ يا جنّتي ولي يومان لا اراكِ. ودنا منها فتصافحا وقال : ما هذا التغيّر في وجهك هل بجسمك ما يؤلمك ؟

— كلّا يا أخيَ بل ارقتُ الليلة فبدا عليَّ ما تراه . ما أرقك يا حبيبةُ فاصارك الى هذا الوجوم ؟

— لا اخالني واجمة .

— بمَ تفكرين ؟

— ما كل خاطرٍ يحسن ان يُباط نقابهُ .

— اتطوين عني دفينة صدركِ وانا اخوكِ ؟ .

— لو كان في خاطري ما ينفعك كشفهُ او يضرّك كتمهُ لأفضيتُ بهِ اليك .

— الاستغناء برأي نفسك غلط .

— واستشارة المخلوق في مواضع استشارة الخالق غباوة وجسارة .

— لا تطلبي مشورتي بل اطلعيني على ما فيه تستشيرين .

ـ ستعمه

ـ خير البر عاجله .

ـ ما لكَ والالحاف في امرٍ لا يلامسُكَ ؟

ـ اجهلتِ انّي احبُّكِ وكل محبٍ مشفق ؟

ـ ان كنتَ تحبني فلا تضغط عليَّ .

ـ انا متوسلٌ لا ضاغط .

ـ توسلك يؤلمني .

ـ وكتمك يُقلقني .

ـ اتراكَ مستوحشاً من ناحيتي ؟

ـ معاذ الله ان يداخلني ريب منكِ .

ـ اذن . فما يعكّر صافيك ؟

ـ قدومُ خالكِ في هذا الوقت .

ـ حديث خالي الى اذنٍ صمّاء .

ـ إذن أأفرغ من خوف المستقبل قلبي ؟

ـ المستقبل ليس لاحد . انما المستقبل لله .

ـ هل ترضينَ لي عذاباً ؟

ـ انتَ احبُّ اليَّ من نفسي .

ـ لا أجهلُ محبتكِ كأختٍ ، فنحن متحابّان على هذا الوجه منذ الفطام . لكنَّ قلبي اليوم يطلب غير محبتنا في الامس .

ـ ما بغيتُكَ ؟

ـ محبة نبني عليها مستقبلاً سعيداً وتقرن قلبينا معاً بوحدة الحياة .

ـ هذا لا اعدُّ به ما لم اعلم مشيئة السماء .

ـ لو لم تشأ السماء ان تكوني سعادتي على الارض لما وُلدنا في بيتٍ واحد وساعة واحدة . أمن سبيل الصدفة وقع لنا هذا فاشتركنا في الرضاع ولبسنا معاً حلّة المهاد من يد استقنٍ بعينه . ونشأنا في سريرين متحاذيين وكنا ندبُّ على الطنافس في قاعة واحدة ونبكي ونضحك ونقفز ونلعب ولا صبرَ لاحدنا على فُرقة صاحبهِ ولو ساعة من النهار .

فقاطعتهُ ماريًا وقالت : رويدكَ فريدُ . كلُّ ما تحبُّ ان تمرَّهُ على ذهني فهو ثابت فيه كالنقش في الحجر . وفي نفسي من تأثيره مثلُ ما بنفسكَ وزيادة، فأنا إمَّا لكَ وإمَّا ليسوع المسيح . قال : كم في كلامكِ من غموض .

ــ تعلم يا أخيَّ ان كثيرين من أولي الثروة والجاه قد طلبوا ما انتَ طالبهُ فردّوا بلا رجاء . اما انتَ فأُعطيتَ تأميلًا لاتيك الحظ الذي اختاره ان اذن الله .

ــ شكرًا لكِ يا حبيبة . انَّ في كلامك لتعليلًا وعزاء . لكنه لا يبرّد غلّةَ ما دام مقروناً بشرطٍ . لماذا لا تبتّين لي عهدًا فيسكن تأثري وأفلت من ربقة الارتياب ؟

ــ لاني على ريبٍ من دعوتي فاكرهُ ان اقطع عهدًا ثمَّ اخون .

قال فريد : انكِ تزرقين فؤادي ولا تدرين .

ــ بل انتَ تزرّق قلبي بانكسار نفسك ولا تدري اني مسيرةٌ لا مخيّرة .

ــ لولا ايقاني بنقاوة دخلتكِ لتجاذبتني فيكِ الظنون، ماذا اقول يا زنبقتي البيضاء وقد اجتمعت بكِ أجمل خلال الخير واكمل خصال الظرف . لعلَّ في ما لا يحسن في عينيكِ بصركِ يا حبيبة هل تنكرينني لهُ ؟

ــ مِمَّ انكرك يا أخيَّ ، اما انك جوهر الظرف ومعدن الادب ، هل في الشبّان اقصر منك يدًا عن المساءات واسرع منك قدماً الى المكرمات .

ــ ان كنتُ ذلك في نظركِ فلماذا ضننتِ عليَّ بصفقةِ يدكِ ؟

ــ لاني اكرهُ التسرُّع .

ــ ان بين التسرُّع والاسراع لوناً .

ــ أبلغني ريقي .

ــ نقّي من كربي .

ــ دعني اتحدث الى جدّتي ساعةً ثمَّ اعود اليك .

ــ ذلك اليكِ .

ذهبت ماريًا لتحدّث جدّتها وجاء جبُّور في فمهِ كلام يقولهُ لها، فلم يجد غير فريد، فسألهُ اين العزيزة ماريًا ــ قال : مضت الى جدّتي منذ بضع دقائق ــ قال : ما هذا الذي اراهُ في وجهك من كسوف ؟ قال: تساقطت نفسي غمًّا والتياعاً ــ قال جبُّور : سلمتَ . فما دهاك ؟ قال : خوفي على ماريًا ، فقد كثر طلّابها

حتى خيل اليَّ ان النسيم يخطفها من بين يدَيَّ ـ قال : سرّ عن نفسك الهمّ فانها لن تصير لغيرك . قال فريد : اعن يقين تقول هذا ام لتُذهب برحاء صدري ؟ ـ كلّ اليقين ـ هل تحدثتَ اليها اليوم ؟ قال نعم . قال : وما قالت ؟ قال : انك حظُها ان كان الزواجُ دعوتها .

فريد : آهٍ . من هذا الشرط كم جعلني اقلّب من الهمّ كفّي !

جبُور : ابنة عمك فتاة صحيحة الدخلة صادقة اللهجة قلبها على لسانها ، وهي تعلم موقعها من قلبك وقد صرّحت امامنا برضاها فلن ترجع به ، انها ربّة وفاء . فكن ناعم البال قويَّ الامل ، فسوف تجدها عندما تحبّ . غير انه اذ كان الزواج رباط العمر وسرًّا عظيماً وجب ان لا يُقدم عليه الا مسوقاً بتأهب وتبصّر كافيين .

فريد : ان كان اقترانا على مرامها وكان كلنا راضياً به ومحبّذهُ ، فاذا يسوءُها ان تسقط قطرةٌ من ندى وعدها على قلب يخنقهُ الجفاف .

جبُور : صبرًا يا بنيَّ اني منطلق لاحدثها وراجٍ انها ستنيلك المُنى فتطيب نفسُك ويستقرّ الفرح في قلبك .

فقال فريد : شكرًا لك يا سيدي ، اني امكث هنا ريثما تعود بالبشرى السعيدة او ترسل في طلبي اليك .

قال جبُور : امكث مطمئنّ البال . وما كاد يتوارى عن نظر فريد حتى اقبل سليم ابن خالة فريد فسلّم عليه وقال : أي ابن الخالة كيف انت ؟

فريد : على ما ترى .

سليم : اراك مشترك الخواطر ـ قال فريد : بين الضلوع نارٌ تلتظي ـ قال سليم : انفدتْ جعبتُك ولمَّا تُصب مرماك ؟

فريد : اسدّدُ السهمَ فيطيش .

سليم : اذن . أمِن اليأس انتَ مكروب النفس ؟

فريد : حبذا اليأسُ انهُ اهون من التقلّب بين الامل والفشل .

سليم : اما تأخذ مني هذه النصيحة ؟

فريد : بلى . ان استطعتُ ، فما نصيحتك ؟

سليم : اذا لم تستطع امرًا فدعهُ وجاوزهُ الى ما تستطيعُ .

فريد : ليس الامرُ في يدي .

سليم : رجلٌ لا يملك امره ليس بالرجل .

فريد : ما اصنعُ بقلبي — اصرفهُ الى قلبٍ يماثلـهُ . أمن قلّة الطالبات رضاك تطلب من تترفع عليك . قال : لو كنت تعلم ما الهوى لعذرتني — قال سليم :— لا عذرَ لمن يُسلط هواهُ على عقلهِ وارادتهِ . ألا تعلم انهُ لا شيء اكثر تقلباً من قلب الانسان ، حوّل فؤادك عن هذا المتجه الوعر ، وانا مربيك درّةً غاليةً لا تعدلها الشمس اشراقاً ولا الزنبقة بهاء ، وضامنٌ لك كونها رهينة كلمتك وقيد رضاك . — قال فريد : انَّ ماريّا اقرب اليَّ من نفسي وكأنما هي في قبضتي ، وتمام بغيتي مترتب على كلمة ، لكنَّ هذه الكلمة من يستخرجها من شفتي تلك التي هي سعادتي على الارض . أسليمُ . مثلي لا يحيد عن الوفاء . لئن تحول عنها قلبي لدعوت عليهِ بالحطم والسحق والالتهاب ، أليس عاراً على الفتى ان يعطي قلباً بقلب ثمَّ يردُّ ويستردّ . هب انني رضيتُ لنفسي هذا العارَ أفأرضى العذاب لمن احبها على نفسي . لا عشتُ يا ماريا ، يا عطية الله لي ، لا عشتُ ان فعلتُ . قال سليم : ان هذا لمنتهى كمال المحبة . لكنها خطة وعرة قلَّ ان يخطأها لنفسهِ محبّ . اذن وطِّن النفس على معاناة العذاب .

فريد : ان ماريا اكبر من ان تعطيني املاً يقوم على اساس الخدع والمراوغة .

سليم : ان كنتَ تأنس منها المحبة لك فما هذا الذي يقيمك ويُقعدك ؟

فريد : أنها لا تبتُّ لي عهداً .

سليم : أليس هذا كفوءاً لحملك على التريُّث من امرها ؟

فريد : لعلَّ لها عذراً .

سليم : انا اوفدتُ اليها عجوزاً ذات ارابةٍ وحنكةٍ ودهاء . حدثتها عنك وامضت في تشويقها ، فلما عادت اليَّ قلتُ ما وراءكِ يا عجوز ؟ قالت خزانة مقفلة .

فريد : ذلك دليل على فطنة الفتاة ، وليست الفطنة بغريبة . فلا يبعد ان اظفر بالمرام قبل ان تغرب شمس هذا النهار . قال سليم : لا ساءَ فألك . اسمع وطأ قادم فها انا أُخلي لك الجوَّ لعلَّ هذا القادم يبتغي تحديثك على انفراد . وحينئذٍ ذهب سليم من باب واقبلت ماريّا من باب آخر . رأت فريداً مطرقاً فقالت : فريد ! متى تقشع سحاؤك ؟ يشق عليَّ ان اراك مكروباً . قال : يا جنتي

ارسي ريح رصاك فتقشع عني وبيسف كربي . قالت : حبس . اني وجدتك تعلي اعيد الى نفسك السكون — فأشرقت أسرة فريد وجلس وقال : اول مطلع الفجر بهتّ . فايه . — قالت : أخيّ . انتَ تريدني قسيمة لحياتك وشريكةً لك في السرّاء والضرّاء ، بل انت معتقدٌ ان عندي كل سعادتك على الارض . فان يكون اعتقادك مصيباً او مخطئاً ذلك امرٌ لا اتصدى للبحث فيه و . . . فقاطعها فريد وقد ارتجزت اوتاره وقال : ابتدأت بنا يُنعش فيَّ الروح وادراكٍ ستتهين بنا يحطم ما بنفسي من بقية الرجاء . بعيشكِ ماريًا لا أجهزتِ عليَّ . قالت تجلّد يا روح ابنة عمك وارعِ سمعك ما ساقوله لك فانه كلام العقل الى العقل ، فانك ان استرسلتَ الى الغضب او الى القنوط حوّلتَ الدرياق الذي اريد به شفاءك الى سمّ زعاف .

قال : بل السمُّ لو قذف من شفتيكِ لحولته المحبة الى ترياق . قالت علمتُ الزواج عقدًا لا يحلُّهُ الّا الموت فعقدتُ المشورة مع ضميري والتمست مشورة روح القدس فوجدت ان بيني وبين الزواج حاجزًا لا يُنقض — فصاح فريد وقال : واتعساه . من الذي بسط لكِ هذا الرأي الوخيم . انتِ زنبقة الثلب الناصعة البياض ، انتِ وردة الحدائق المطيبة بعرفها اذيال النسيم . انتِ نسيجُ وحدكِ وفريدة عصركِ وتاجُ جنسكِ ، أأنتِ لا تصيرين لرجلٍ يجلّ مكانتكِ العالية ويقدّر خلالكِ الباهرة ، فبتربة ابيكِ إلا رحمتِ قلبي الكسير ، وان كنتِ لا ترحمين شبابكِ النضير . — قالت : ما انا بربّة امري . قال : لمن السلطان عليكِ وانتِ سيدة هذا القصر ومعبودته ؟ — قالت : لمن في يده حياتي ، لمن لهُ وحدهُ نفسي وجسدي الى الابد . فلما سمع هذا الكلام اتقدت في قلبه نار الغيرة فقال : يا لنار الغيرة تلتهمني اي التهام . مَن هذا الذي لهُ من قلبكِ كلّ هذا الحب العظيم ؟ قالت : هو ربي وعريسي والهي وفاديَّ يسوع المسيح . فهان عليه الامر بعض الشيء وقال : ان المسيح مسامحٌ لا مزاحم . فما هو لقيصر لقيصر وما هو لله لله .

قالت : القلب كالنفس لا يتجزأ . قال : لقد تفتتْ كبدي غمًّا افلا ترحمين بؤسي ؟ قالت : ضمنتُ ليسوع من نفسي التوبة ، فكيف انقض عهدي .

قال : اوَ تستحلين دم اخٍ ما لقيتِ منهُ غير الاخلاص والوفاء . ؟ — قالت :

بروحي انتَ . لكني انزّهُ شهامتك وعلوّ خُلقك عن التزوج بفتاةٍ اقدمت على خيانة عريسها يسوع المسيح .

ففار فائرُ فريد وقام منتصباً على قدميه وهو لا يدري اقام ام قعد . واتسعت فتحةُ عينيه بحملقةٍ هائلة واسقط عن شفتيهِ المرتجفتين هذا الكلام : لقد عيل صبري وأشكل عليَّ امري وضاقت عليَّ المسالك وتمثل شبحُ اليأس لعينيَّ . ماريًا ! ألا تعاهدين فتشتري حياة ابن عمكِ بكلمةٍ من فيكِ ؟ قالت : لو سألتني روحي لوهبتها . لكنك تسأل ما لا يُستطاع ..

اخذ اليأس يدب في عروق فريد وقال بلهجة الناضب الحزين : يا لضيعة الثقة . يا لخيبة الرجاء . اهذا منتهى تلك المحبة الرقيقة . لقد احببتك يا ظلوم منذ بدت برعمة الحب في غصن حداثتي الرطيب . لا محبة الاخ للاخت احببتك بل محبة النفس للنفس ذاتها . على حبك نشأتُ وفي حبك حييتُ وبحبك رقيتُ آمالي الى ذروة السعادة والرُفاه ، وكان نظري لا يشبع من تأمل عينيكِ النقيتين تسيلان لي من لذة الحب ما لا يُستوفى وصفهُ بلسان ، وكنت احسب ان هذا سيبقى وتزيده الايامُ وما خطر في بالي مرةً انني راكبٌ متن الغرور . اما الآن وقد طمست معالم حبكِ وتعيرت مرامي نفسكِ وصرمتِ حبالي وحطمتِ آمالي وضيّعتِ عهدي فما رؤفت بذلّي وانكساري ولا باليتِ بتوجعي واحتضاري . فما أصنعُ ؟ أأنتقم لنفسي ؟ مِمَّن ؟ أمنكِ يا ماريًا وانتِ اعزُّ عليَّ من روحي . النفسُ اكبرُ والشيمة اعلى والمروءة اعظم ، ولو شئتُ ان ابذل النفس لشي من اللؤم لقامت محبتي . نعم محبتي لقامت في وجه غضبي تردّني الى الوراء . انَّ المحبة لاقوى من الموت . وكان في منطقته مدية استلّها من غلافها الفضي وقال : ليتكِ تقبضين هذه المدية وتغرزينها في هذا القلب الذي ما نبض الّا لاجلكِ ولا علق الّا بهواكِ . ليتكِ تخضخضينها في سويدائهِ كما تخضخض فيه حبكِ الذي خُتم بهذا اليأس المميت . ما اطيبَ الموتَ من يدِ الحبيب الكنتكِ حتى بهذه المنّة تبخلين عليَّ . فانا أنا اطعنُ هذا القلب الذي فارقه السلام وامسى مستوقداً تتأجج فيه نار الجحيم . نارٌ يتصاعد لهيبها محرقاً الى الرأس ويلتف قتامها مغشياً على البصيرة والبصر . قال هذا بصوت يخنقه الغيظ اليائس ورفع يده ليضرب صدره ، فوثبت ماريًا وباسرع من رد الطرف ضربت على ذراعهِ بيدٍ اخذت

من الخوف فورة لا تدفع فساعت مدية الى الارض فسقطت . ـ صاحت فيه من صوتها وقالت : فريد ! فريد ! استعد وعيك . ان هذا فعل جبناء وعاديد ، فعل الابطال الصناديد . صدري لا صدرك تضربُ او عبر عن هذا الجنون ؛ سكن الجأش يا أخيَّ واذكر ايَّ فتى انت . ومن ايّ معدنٍ كريم تحتَّ . اين عقلك الكبيرُ واين حلمك الغزير ابهذا العمل الخسيس تدلُّ على حبك لي .

قال : بعيشكِ ماريا دعيني اطعن هذا القلب الذي تفاقم كربه ونفد صبرهُ . دعيني أُرق محبتهُ دماً يتدفق على قدميك . قالت هب لي هذه المدية دليلاً جديداً على محبتك . وخبأت المدية في عبها وقالت : استعدْ رشدك واجلس ازاء اختك التي القيت في نفسها رعباً اشدَّ من الموت . فهدت ثورة غضبه وجلس لا ينبس ببنت شفة ، فكلمته ماريا بصوتٍ رخيم ارق وانعم من نسيم الصباح وقالت : أخيَّ : بماذا احلف لك على اني احبك كما تحبني واكثر مما تحبني احبك . الّا ان محبتي لك لا طائشة ولا عمياء . محبتي تبصر في عواقب الامور ، وتريد لك مستقبلاً حافلاً بالسعادة والهناء . لذلك لم اقطع لك العهد الذي طلبت اليَّ . وقد غمني جداً ان تسترسل الى اليأس فالى قصد الانتحار مع ما لك من سلامة العقل وشرف المحتد وصحة الايمان . اليس انَّ في فؤادي مثل ما في فؤادك وقد غلبتُ هوايَ . افترضى لنفسك ان تكون اقلَّ بسالة من فتاة كالنعجة تجفل من صوتٍ مباغتٍ وظلٍ يمرُّ ؟

قال فريد : عذراً يا حبيبة فقد كنت فاقد الرشد والآن وقد هدت فورتي لا اعرف كيف استرُّ خجلي المذيب . لقد اشتريتِ حياتي وصيتي وابديتي ووقيتني شراً جسيماً وعاراً شنيعاً فلكِ عليَّ الشكر ما حييتُ . ـ قالت : ليكن شكرك لله لا لي . أصغِ الى ما القيه الى سمعك عن لسان اختٍ تحبك وتتمنى لك السلام والسلامة ورعادة العيش وراحة القلب وخلوهُ من كل غمٍ وهمّ . انتَ تريد الاقتران بي لاعتقادك ان في ذلك كل سعادتك . امّا انا فلاعتقادي ان الزواج حالة لا يريدها الله ولا ظفرتُ بدعوة اليها من لدنهُ . وقع في يقيني انَّ زواجنا على هذا الحال سوف يكون وبالاً عليَّ وعليك . افلعلك تحبُّ ان تتخذ لك زوجةً تشقيك وتنغص عليك لذات الحياة ؟ قال : لا . ـ قالت : إذن عدِّ عن هذا المطلب ونبقى كلانا متحابين كاخوين الى منتهى العمر . ومتى

افرغتَ قلبك من محبتي على الوجه الذي ابتغيتَ وهي محبةٌ لا تجديك واخذت تلتمس تعزيـة السماء. لا تلبث ان تتغير افكارك وتنطفئ نارك . وانت تعلم ما مبلغ حظوتك لديَّ . وها انا على ذلك اكبّد نفسي اقسى ذبيحة لابي دعوة الله . فما ضرُّك ان تقرّب لله ذبيحة محبتك تشبهاً بي . او ليس جميـلاً بك ان تقربها في الاقل لهذه الخليقة التي تهواها الى اقصى حدود الهوى فتخفف مـا يولمها من عذابك في محبةٍ عقيمة .

قال : ان لم يكن ما تريدُ فاردُ ما يكون . لقد تصرَّم كلُّ امل وسقطت جميع الحيل . فلم يبقَ إلَّا الصبرُ او القبرُ . لعـلَّ الله يجبر كسري بالسلوّ او يستعجل وديعتهُ فاستريح .

قالت : امضِ الآن الى منزلك واخلُ الى نفسك وسلّم الى الله امرك تجد ولا ريب ما انت بحاجةٍ اليه من طمأنينةٍ وسلام . ــ فتلقى النصيحة بالشكر وقال : الوداع يا شقيقة الروح . الوداع يا طيبَ النفس ولـذَّة العيش ، ومضى وهو يمسح الدمع عن عينيه وخدَّيه . حينئـذٍ جثت مارتا على ركبتيها ورفعت ناظريها جهة السماء وقالت ودموع الفرح تتساقط على وجنتيها : شكرًا لك يا ابانا الذي في السماوات . يا من رحمتهُ الى خلقه اوسع من الارض والبحـار . شكرًا لك على انك يسَّرت لامتك انقاذ هذا الفتى من لجة اليأس والهلاك . انتَ تعلم انهُ لم يكن في محبتنا عيب ولا حيدٌ عن طريق وصاياك ، واني لاجل محبتك رفضتُ محبته الشريفة فامسى فريسةً للعذاب . بَرِّدْ بتعزياتك غلّة فؤاده يا ارحم الراحمين .

وبنا انك تأمرني بان اترك كلَّ شيء واحمل الصليب واتبعك ، وانا لا اعلم الى اين تحبّ ان امضي ولا اين تريد ان اقيم ، ولا كيف اعيش لانجز امرك بكل طاعة وتدقيق . فسهّل امامي السبل وارسل ليَ شعاعاً من نور روحك القدوس ، فتهتدي أمتك الى مواطن العمل بمشيئتك .

وانها لكذلك واذا رفقة تقف لديها وتقول : في الباب ناسكٌ شيخٌ يستأذن عليك ، قالت مارتا : ما حاجتهُ اليَّ ؟ قالت : سألتهُ فـاجاب : خيرٌ . قالت مارتا : لعله رسولٌ من لدن الله يحمل الى نفسي السلام . أدخليـه . فادخلت ناسكاً مجهولاً مشتملاً بالثوب الصوفي الخشن ممّا يلبسه الرهبان المتبتلون الى الله

في مقدس وفي يده عكاز يتوكأ عليه وحسنه نحول وجهه نحول وشحوب.
أجال نظره في القاعة من كل صوب فتهللت اسرته وقال بصوت حفي : هذه القاعة لا تزال على عهدي بها ، وهذا رسمي في موضعه لكن عليه علامة الحداد حزناً عليّ . وهذه مارتا فلذة كبدي لم تفقد والحمد لله شيئاً من صحة البدن وملاحة الصورة وتوردُّد الخدين ، انَّ في ذلك لدليلاً على نقاوة وصون زهرة العفاف من عوامل التغيُّر والذبول . واتجه نحو مارتا وقال: حيَّاكِ الله يا ذات المحاسن والحصانة والخلق الكريم . اما هي فاول ما وقع نظرها اليه تهللت روحها ومال قلبها بالحب اليه فدُهشت من ذلك وقالت في نفسها : من يكون هذا الذي يركض للقائه فؤادي ؟ ما هذه التعزية اللذيذة التي صُبَّت على نفسي اذ وطأت قدماهُ عتبة بيتي ! ثم رحبت به وهشَّت له وسألته : مَن تكون يا سيّدي المحترم وما حاجتُك فتُقضى ان كانت مما يستطاع ، قال : ألم تعرفيني يا مارتا تفرّسي في وجهي ألستُ ابالكِ لا تحدثي ضجاً فاني جئتكِ متنكرا لا احب ان يعلم بقدومي احد سواكِ .

فلما عرفتهُ لم تعد تملك نفسها من شدَّة الفرح وقالت : تباركت السماء ، يا للغبطة ويا للسرور !

ما اجمل هذه الساعة الخافقة باسباب المسرَّة والهناء. وانتعاش الروح . واقبلت اليه فوقع كلٌّ منهما على العنق الآخر يقبّله ويبلّهُ بدموع الفرح،وقالت: آه ، يا ابي ، كم عذَّبني فراقك وكم سألت الله ان يردَّك اليَّ .

قال : اجلسي فاحدثكِ هنيهةً فانَّ وقتي قصيرٌ وثمين . فجلس كلاهما وبدأ يتكلم قال : منذ وفاة امّكِ الصالحة الذكر أخذ وجه الدنيا يتبدل لي. فكل ما كنتُ فيه من نعمةٍ وكرامةٍ ومكانة ونفوذ كلمة وبُعد صيتٍ وصداقات نبيلةٍ ثابتة القدم في المودَّة والاخلاص والوفاء. كلُّ ذلك انقلب الى امورٍ انظر اليها بعين الكراهة والاشمئزاز ، وصرت اسمع في باطني نداء لا ينفك يقول لي: يا هذا قد نلتَ حظّاً من الدنيا تُحسد عليه ثمَّ ترفتَ فراغها وزوالها فقم وابدُر لاخذ حظٍّ من الآخرة فتفوز بسعادة لا تزول. خلِّ الدنيا لاهلها واترُك كلَّ شيء. واتبع يسوع الى الجلجلة غير ملتفتٍ الى الورا. . وبعد تردّدٍ طويل حصل لي اليقين بانه صوت الله يقرع مسمع نفسي دعوةً الى سيرة جديدة أجدى عليَّ .

فلم اجد بدًا من تلبية النداء. فخرجتُ خلسةً من هذه الدار ملتحفاً ثوب الظلماء حتى لا اجد عائقاً من انسان وقلتُ يا ربِّ قدّني الى حيث تشاء. وسريتُ وانا لا اعرف الى أين واذا بي قد انتهيتُ الى ساحة دير قنوبين وجلستُ افكر في شأني الى مطلع الصبح ففُتح باب الدير ورآني راهبٌ فقال ما حاجتك يا أخي ؟ قلت : ان يُحسَن اليَّ فأُقبل راهباً في هذا الدير المبارك، فاخذني الى كبير النسّاك فخلا بي وتحدّث اليَّ طويلاً فاوقفتهُ على كل امري ، فلمّا رأى صلابة عزمي مع علمي بما انا مقبلٌ اليه من الحرمان من كلّ طيبات الحياة قبلني اولًا في صفّ غير الناذرين وكان من سلوكي ما اكسبني رضا الجميع. فاجمعوا على اهليتي للنذور الرهبانية فتقيّدتُ بها وصار تأهيبي للكهنوت المقدس فرقيتُ الى شرفه العظيم وصرتُ معروفاً بالاب مارون. وما زلتُ اسعى في طريق النسك بخطوات واسعة وفرح ونشاط اتبع الرب يسوع غير ملتفتٍ الى ما ورائي حتى اخذتِ تجولين في خاطري صبيّةٌ في شرخ الشباب محلّاةً بجمالٍ رائع يسترق العيون فاشفقتُ عليكِ من مخاطر العالم الغرّار . اذ ليس لكِ من يرعاكِ لا أبٌ ولا أمٌ ونفسكِ اعزّ اليَّ من كل ما تحت السماء ، فغلبَ هذا الفكر عليَّ فنغّص عيشي وحرمني لذة الصلاة والتأمل السعيد ، فاقبل الى بدني النحول ، ورأى الرئيس تبدّل حالي فسألني فكشفتُ له عمّا بخاطري فرقَّ لحالي وقال : ان شئتِ ان ترجع الى بيتك فتنظر في شؤونه وتحتاط لامور ابنتك لتوجّه بها الى مستقبل امين فذلك اليك ، تتمُّ مهمّتك ثمَّ تعود الى ديرك خالي البال مما يلقي اليك قلقاً وكربَ نفسٍ فيعاودك السلام وصحة البدن فتتفرغ لعبادة الله وخدمته بقوّةٍ ونشاط ، لا تألُ جهدًا في انجاز ما انتِ منطلقٌ فيه باقصر وقتٍ مستطاع. تركتُ خلوتي المحبوبة واتيتُ لاعمل ما يريح بالي وبالكِ إذ يحصل لي الركون الى مستقبلٍ يؤمن لكِ السعادة في الدنيا والآخرة ، فهلّا توافقين على تدبيرٍ يبدو لي كونهُ مبلغاً الى الغرض ؟ قالت : مُرني . تجدني اطوع لكَ من بنانك . قال : ان فريدًا ابن عمكِ هائمٌ بكِ منذ الصغر وقد وعدته بان تصيري له زوجةً وهو يقدّر قيمتك ويتزلّك من نفسه في المكان الارفع . فأُحب ان ازفّكِ اليه اليوم لاني رأيتهُ الحظ الافضل الذي تجدين عنده ما ارومهُ لكِ من رخاء العيش وهناء الحال الزوجية لانشاء عائلةٍ مسيحية على حسب قلب الله . —

قالت : لم يبقَ يا أبي المحبوب من موضع للكلام على الروح ذاتي بعد امعان النظر وطول التأمل نذرتُ بكارتي لعريسي يسوع المسيح فانا مخطوبةٌ له . هيهات ان اخون عهدهُ فاصيرَ لرجل . قال : واذا امكن حلُّكِ من هذا النذر بطريقةٍ قانونية فهل تصيرين زوجةً لفريد ؟ قالت : لا اريد ان يحلَّني من نذري غير الموت ، والموت نفسهُ لا يقدر ان يفصلني عن عريسي يسوع المسيح محبوب نفسي الوحيد الى الابد . قال : هذا يسرُّني جدًّا . لكنني لا ابرح مشفقاً عليكِ من مغويات الدنيا وتقلُّب القلب البشري . فما يكشف من خوفي الّا ان تنضمّي الى راهباتٍ ناذراتٍ نظيركِ في احد اديارهنَّ فتكوني اكثر حصانة واقصى عن الخطر . قالت : ابي ابكل رضًى وسرورٍ اتلقى مشورتك هذه الجامعة بين الحكمة والصلاح والحب الوالدي ، ومثلها كانت مشورة روح القدس فوطنتُ النفس على العمل بها ولم يبقَ الّا ان استشيرهُ في الدير الذي انضوي اليهِ . فاكشف عنكَ الخوف وأخل قلبك من الاهتمام واعلم اني ما ابطأتُ في اخراج قصدي الى الفعل الّا ما كنت اجهله من امرك فلا اعلم ان كنتَ حيًّا ابن تكون . ها قد وُهبت العلم بكل امرك فلن يطول الوقت حتى انفّذ مشورتك ثمَّ اخبرك فتزيد اطمئناناً اليَّ . امَّا املاكك التي لك في هذه البلدة وغيرها ومحتويات دارك هذه فلستُ بحاجةٍ الى شيء منها . حسبي عريسي يسوع لي به الغناء عن كل شيء . قال : أجل بهذا التخلي يا بنيَّةُ محبَّةً ليسوع المسيح فانه في محبّتنا أخلى ذاتهُ واشترانا بدمهِ الكريم مسترًا في صليب . ففي سبيله وهبت لكِ نصف املاكي من ثابتٍ ومنقول . فان شئتِ صرفتهِ الى الدير الذي ستدخلينه ، وان شئتِ وزّعتِ كلَّهُ او بعضهُ على المساكين . امَّا النصف الآخر فيكون النصيبَ لدير قنوبين . كل ذلك سيمضي بالوجه الشرعي بعد رجوعي الى الدير . — قالت : بالشكر تقبّلتُ منحتك السخيَّة . غير اني لا ادري كيف ادبّرها فتولَّ انت تدبيرها على ما ارتأيت . وحُطَّ عن كاهلي حملها الثقيل . قال : لكِ ما اردتِ ، وعليكِ ان تعلميني في ايَّ دير تكونين — قالت : اكثر من ذلك ستعلم ويكون لك طيبُ نفسٍ كثير .

قال : على هذا العهد اودّعك يا ولدي ، فكرني وديعتي الثمينة بين اذرع ربنا يسوع وامه العذراء سلطانة السماوات والملائكة والقديسين . ما علمتُ

اخشى عليكِ سوءا وانتِ في هذا الحصن السماوي المنيع . ووقع على عنقها يقبلها وتقبله وضمّها الى صدره بين ذراعيه وبكيا وقال : الى اللقاء يا حبيبة ابيكِ . الى اللقاء في دار السعادة والخلود ، ليس بيننا ثالث يرى ما دار بيننا من حديثٍ فليبقَ سرًّا مكتوماً حتى يتمّ ما توافقنا عليه . وانطلق لسبيله يحجبهُ ستارُ ليلٍ حالك الظلام . وتبعته ماريا تشيعه الى باب الدار ، ولما انتهى الى قنوبين أطلع الرئيس على ما وقع له وسأله المعاونة على تنفيذ ما تقرّر في شأن املاكه فتمّ له ما اراد .

اما ماريا فخلت الى نفسها وفكرت في ما تصنع واستخارت الله سبحانهُ فهبط عليها الإلهام فاختارت الدير الذي اختارهُ لها الله وعقدت القلب على المضيّ اليه .

٥

صباح يوم من ايام شهر ايار المبارك المختص بتكريم السيدة العذراء المجيدة والدة الله ، كان في مدخل دير قنوبين شابٌّ جميل الصورة حسن البزّة يطلب مواجهة الرئيس لحاجةٍ يعرضها لديه . وللساعة صارت المواجهة ومُدَّ بساط الحديث وما هي الّا ساعة حتى جيء بالشاب الى كنيسة الدير وقد بُدلت ملابسهُ الانيقة بالثوب الرهباني يكون عادةً من صوف خشن قاتم اللون او من خام غُيّر لونهُ بصباغ النيل . فمنح البركة بالصلاة على عادة الرهبان في قبول طالب الترهب وأحصي في عدد المبتدئين في السيرة النسكية ، والتفَّ الرهبان من حوله في غرفة الاجتماع يتعرفون اليه ويهنئونه بسيرته الجديدة متمنين له النجح والثبات. ورأوا في وجهه ملاحةً لا تشبع منها العين وفي نطقه طلاوةً واديباً وفطنةً فمالوا بقلوبهم اليه وجعلوا يتحدثون عنه همساً قائلين : لم نرَ قطّ مثلًا لهذا الفتى فهو في ما يبدو لنا من براعة خلق واخلاق فان كان باطنهُ مجمّلًا كظاهره فانهُ هو اللؤلؤة غالية وتحفة نفيسة ودرّة لا يعدلها ثمن . ثم انهُ وقف فيهم جامعاً يديهِ الى صدره وقال : ان عناية الله التي لا تغمض عينها عن مخلوقٍ هي التي ساقتني الى هذه الارض المقدسة لاجمع لنفسي كنزًا من الفضيلة والاستحقاق . فماذا اتمنى زيادةً على ما احسن به اليّ من العيش بين ملائكة متجسمين في هذه البرّية المختارة التي لا يبرح روح الرب يرفُّ عليها فوق غمام البخور

المطبق الفضاء . حيث بكثرة رحمته يتقبل تسابيح المغرمين بحبه المباركين اسمه القدوس ليلَ نهار . فاجابه الرئيس وقال: انتَ نعمَ الفتى ستكون نعمَ الراهب بعونة الله ، فنتمنى لكَ بقاء هذا الفرح النقي متزايداً حتى يتكمّل بفرح السعادة والمجد في السماء. ومن الآن يُطلق عليك اسم مارينوس الذي اتخذتهُ من حوض المعاد ، وعيّنا لك اخانا الاب مارون مرشداً روحياً ومدبّراً يرشدك الى ما ينبغي عليك عملُه او تركهُ لتسرَ في معارج الفضيلة الى ذروة الكمال . فلازمه واتخذه لك ملاكاً حارساً وكن منتصحاً بنصحه ومصغياً اليه ، ولقاء اهتمامه بشؤونك تتوفر انتَ على خدمته واعانته على حاجات شيخوخته واوهانه مما يعسر عليه قضاؤه بنفسه . والله سبحانه كفيلٌ باثابتك اذ تعمل كلَّ شيء لتمجيده ومرضاته . — فقال الاب مارون : شكراً لك يا ابانا الرئيس على ما تبديه من العناية بي للتخفيف من اثقال الشيخوخة وان كنتُ لا اتبرّم منها بل احسبها منحةً من الله لزيادة اجري . — وقال مارينوس : ما اتيتُ الّا لاخدم واطيع واذلل هذا الجسد بالصوم والصلاة والكدّ والتعب . فسأتمم لمرشدي الاب مارون كأنه للمسيح واخدمه بفرح ونشاط ، كما اعدُّ نفسي خادماً لكلٍ منكم ولي في ذلك فخرٌ وسرور . فقال الرئيس : يباركك الربُّ ويشدّد عزمك ويزيدك رغبة في البرّ وصبراً على مشقّات الحياة النسكية فتصبح من اقرب النساك زلفةً لديه .

ارفضَّ المجلس وانطلق كلٌّ الى عمله ، وتبع مارينوس مرشده الاب مارون ليتلقى تعليمه ونصائحه ويقوم بخدمته المسندة اليه . واخذ بالمواظبة على مجاراة النساك في قمع الاهواء وضبط الحواس عن مسارح الشهوات والتمرس بالطاعة والصلاة والصمت المتأمل وعمل اليدين حتى احرز السبق على كثيرين حتى الشيوخ . فاكبروا فضيلته واعجبوا بسرعة تقدّمه على حداثة عهده في الدير وما هو فيه من سنّ الشباب ، فاجمعوا على حبّه واكرامه ، وكان هو كلًّا للكل ومقدّماً على نفسه الكبير والصغير ، مجمّلًا باللطف والكياسة والفطنة والنزاهة والقناعة مأكلًا ومشرباً وقلّة الكلام مع فصاحة المنطق وحلاوة اللسان وعلوّ الشمائل والاخلاق . وقد عاهد عينيه على ان لا تنظرا الى وجه انسان رجلًا كان او امرأة فهو يحدّث الآخرين مطرقاً رأسه ينظر الى الارض ، وكانوا يتوقون الى معرفة لون عينيه فلا يمكّنهم من ذلك حتى صار اذا استحى

على احدهم علم امر يُقال هذا اخفى من نور عيني مارينوس . وبدا منه الاعراق في صداقة الاب مارون فكان يتبعه كظله حيثما اتجه واين اقام لا يفترقان في ساعات العبادة ولا في ساعات العمل اليدوي ولا وقت فراغ . وللاب مارون اهتمامٌ بارزٌ بارشاده وتدريبه بالعمل الروحي واليدوي وتوجيهه جهة النجاح اتجارًا بالوزنات ، وما صحَّ لاحدٍ ان يعرف سرَّ ما بينهما من الاتحاد الذي جعل كليهما واحدًا موحّد النظر والرأي والغرض . فرجح عند الكثيرين ان علّة ذلك تماثلهما اخلاقًا ورغبةً في التقوى ونزعةً الى الكمال . وقيام الاب مارون على هذا الراهب الشاب بالتربية النسكية وهما لذلك بمثابة الاب وابنه فلا غرو ان تتوثق بينهما عُرى المحبة والوفاق . على ان الغرسة التي يربّيها الاب مارون في بستان الرب قد بلغت بفضل اعتنائه حظًا وافرًا من النماء واصبحت مزدانةً بوفرٍ من الاثمار الشهية والازهار البهية الباعثة اذكى روائح التقوى الى اعالي السماوات . وعلاوة على ذلك تعلّم مارينوس من ابيه بالروح صنع السلال الخوصيَّة وصار له في هذه الصناعة مهارة وتفوق على سائر زملائه بدليل اقبال المشترين الى مصنوعاته من سبيل تفضيل الاجود على الجيد . وبمعرفة هذه الامور من وجه التقدير زال عجب الرهبان من الاتحاد الوثيق الذي بين الاب مارون وتلميذه مارينوس لا غرو انه متى عُرف السبب زال العجب .

٥

في ساعةٍ مبكرةٍ من صباح يوم قرسَ برده وتلبدت سماؤه قُرع باب الدير ففتح البواب وعجلَ الى الرئيس ينبئه بقدوم عبدالله الطرابلسي فتهلل وجه الرئيس وقال عبدالله ! نعمَ الزائر ، انه عين اعيان الطرابلسيين واكبر محسن الى ديرنا واوفى صديق لنا وخفَّ لملاقاته ورحّب به وقال : ما حملك على القدوم في هذا اليوم تخوض عباب ريحه الباردة غير مشفقٍ على صحتك من غوائله — قال : لا بأس فاني متدثر بثيابٍ لا تخرق الريح فيها . فاخذ الرئيس بذراع زائره ودخل به الى غرفته وجلسا يتجاذبان اطراف الحديث . قال عبدالله : قد استغربت يا ابانا الرئيس قدومي اليك في هذا اليوم المزمهرّ مع ما يثقل كاهلي من وقر السنين . ها انا موقفك على السبب — قال الرئيس : ان لك من نشاط الهمّة ما يجعل من شيخوختك شباباً ، عوّدتنا التمتع بزياراتك

المؤنسة لكن لا في مثل هذا اليوم — قال الزائر: دعت الحال فلم يبق للتأجيل مجال. زارني في الليل الفائت طيف راهب وكأني تفرست فيه فاذا وجه رجل الله الاب هارون، وسمعته يناديني بصوت خافت ويقول: عبدالله! عبدالله. اني على سفر جنتك مودّعاً، فان شاقك ان تلتقي في مدينة السعادة والبقا. فاحمل حملي وتقيّد بقيودي قبل خروجك من دار الشقا.، واني مؤتمنك على وديعة حيّة وعزيزة عليّ فاحتفظ بها، ولفطنتك غنى عن الاسهاب، فلمّا استيقظت جعلت افكر في هذا الحلم وبدا لي كأنه من الله لامر يريده مني فاتيت اطلب تعبيرًا لحلمي. فقال الرئيس هل تمتّ الى الاب هارون بقرابة؟ قال: كلانا من أسرة واحدة لكنّ مودّتنا مبنية على الفضيلة لا على النسب. قال الرئيس: كيف تأتّى لك ان تسبر غوره مع ندرة تحدّثك اليه؟ — قال: حامل المسك لا تخفى روائحه، رأيته اكثر من مرّة في اسواق طرابلس اذ كان يهبط مع آخرين لبيع مصنوعاتهم من الخوص ولم يكن لي معه شأن فاجتنبه حتى كان انهُ نزلت بفتاتي الوحيدة علّةٌ صدريّة تعذّر شفاؤها على الاطبا. واشرفت منها على الموت فنالني من لاذع الحزن ما ملأ نفسي مرارةً وأغصني بريقي، ولمّا ضاقت بي الحيل وسدّت بوجهي ابواب الفرج خرجت الى السوق كفاقد الرشد لا اعي على شيء. فقُدر لي ان التقيت برهبان هذا الدير المبارك فاقبلتُ اليهم وانا لا اعرف احدًا منهم وقلتُ: يا رجال الله اما تعيشون ملهوفاً. فاجابني اكبرهم سنًّا وقال: ما بك يا اخي. فاخبرته بامري وبكيت حتى ابكيته ومَن معه، وقلتُ لعلّ الله يجبر كسري بدعائكم، فقال: اتؤمن بانّ ليسوع القدرة على شفا. ابنتك؟ قال: وبانه ولو ماتت يقيمها من بين الاموات كما اقام لعازر بعد ان لبث به ايدي البلى والفساد، حينئذٍ أخذ الناسك ماء وباركه وغمس فيه صليباً من خشب ورفع عينيه الى السما. قائلًا ثلاث مرات: استجب لي يا رب. ثمّ قال لي: انفض هذا الماء على فتاتك فتبرأ بقوة يسوع المسيح، ففعلتُ فتعافت لساعتها الفتاة، وتدفقت على قلبي عواطف الفرح والشكر وخرجتُ اشيع الآية واحمدُ الله. ومنذ ذلك اليوم المبمون اتصلتُ بالاب هارون وعرفتُ ايّ حظوة له لدى الله وانه من ذوي قرباي وتوثقت بيننا عرى الصداقة والولا. — فقال الرئيس: الآن عرفتُ لماذا

بحب ديرنا وتؤسس ديراتك وتتحف صفاتس ... قال : كيف لا احبكم يا رجال الخير بعد ما رأيت من محبة الله لكم قال الرئيس : ان كان فينا من يصنع خيراً فلا فضل له لانه انما يصنعه بالقوة المفاضة من عل . حينئذٍ ارسل في طلب الاب مارون تلبيةً لرغبة عبدالله وسأل هذا الرئيس قائلاً : الا اجد عندك تعبيراً لحلمي الذي قصصته عليك ؟ قال الرئيس : ما اوتيتُ علم تعبير الاحلام ، ومن الاحلام ما هي اضغاث لا تشرح بتعبير صحيح ، واذا كان مدار حلمك على الاب مارون فقصه عليه لعلّه يُلهم الى تعبيره — فقال عبدالله : يطيب لي الآن ان أسمعك ما تطيب به نفسك وينبض السرور على جمهورك الكريم — قال الرئيس : ما انتَ الّا بشير خير فشنّف بكلامك اذناً مصغيةً اليك . قال :

ان لرهبانكم في المدينة وضواحيها صيتاً يزري بالمسك الفتيت . ذكرهم شهدٌ في الحلوق ونطقهم نغمٌ في الاذان ، في وجوههم الخير ، ومن شفاههم يتدفق السلام ، وفي عيونهم تألّق السذاجة والعفاف وكلّهم رافلٌ في بُرد الكمال ، وماذا اقول في أحدهم مارينوس بعد ان لقّبه الناس بالعجيب . فهو على نضارة شبابه قد احرز النصيب الاكبر من قداسة السيرة وخلال الخير ما يجلب الفضيلة حتى الى اعدائها . ما اجمله حين يدخل المدينة وعلى منكبيه صفّان من السلال يجتاز بها الشارع ولآلئ العرق تتساقط من جبينه الوضّاح واللمعة المقدسة وردتان متفتحتان على خديه البارزين ، فترى الناس حوله افواجاً لابتياع ما يحمله من سلال وفواكه وبقول ناثرين اثمانها بلامساومة ولا حساب ، ولكي لا يتّجه اليه حسدٌ او يُجرح له شعور يشترون بضاعة رفاقه ايضاً بالثمن الذي يفرضون ، عيون الكل اليه لينعموا بنظر ما أُفرغ عليه من جمالٍ وأدبٍ ورزانةٍ بشاشة وكمالٍ ضافٍ على شباب مشوق . عيناه الى الارض ولا يرى في اجلال الناس اياه الّا داعياً لزيادة التعمق في الاتضاع ، ودعاؤه لسائليه ما رُدَّ مرةً بدون ثمار .

قال الرئيس : جميع الرهبان عنده هذه الخلال الصالحة ومن اجلها اجمعت على حبه كل القلوب . ووقع لي احياناً ان شغلته عن المضي الى المدينة بصحبة الاخوة فكانوا يعودون وفي افواههم الشكاية من كساد بضاعتهم فيبيعونها بابخس الاثمان ، فالواقع ان مارينوس راهب راجح الحصاة طاهر الذيل صافي

السريرة متين العقيدة قنوعٌ صبورٌ مطيع مولع بالزهـادة والفقر الاختياري مواظبٌ على اراضة الجسد وكبح الاهواء . وفي الجملة هو مثالٌ في البرّ لكل ناظريه .

وفيما هما في هذا الحديث اقبل الاب مارون يسنده مارينوس وراهب آخر من الجانبين فقام عبدالله ولاقاه الى الباب ملقياً عليه تحيّة الرهبان وهي : المجد لله . فاجابه الاب مارون بالتحية المألوفـة وهي : دائماً ، فليبارككَ الرب . وقال عبدالله وقد غمّه ما رأى من ضعف صديقه : مما تشكو يا ابانا المحترم ؟ — لا اشكو الا من طول غربتي في وادي الدموع ، لِمَ الشكوى وانا ارى اسبابها تتقطّع وقد ازفت ساعة الرحيل ، فلم يبق الّا الاكليل المهيّأ لي في يد الديّان العادل الرحيم الكريم . — قال عبدالله : رُزقتَ اطول الاعمار ، فانت منارة هدى وينبوع بركة واحسان. قال الاب مارون: لا تدعُ لي بطول الغربة فانّ لي حنيناً الى الوطن لا موضع معه للسلام. فقال عبدالله مشيراً الى مارينوس وهـذا الراهب اللطيف اراه اتبع لك من ظلك ، لله ازنا من صاحبين تماثلا خَلقاً وخُلقاً . فلولا التفاوت في السن لقيل انكما توءمان . والتفت الى مارينوس وقال : ما لشمسك غـابت عن المدينة فامست تتشوق الى مطلعك البهيّ ؟ اجاب مارينوس قائلاً الراهب يا سيدي قيد اوامر الرؤساء . — فقال الرئيس : رأيت منه لباقةً في خدمة الدير واستقامةً في خدمة المرضى من اخوتنا الرهبان فأقنه لهذه الشؤون وهي تقتضي بقاءه في الدير فلم يعد يخرج منـه الّا اذا اضطررت لعيادة مريض في الجوار فيخرج بصحبتي فيتبارك به المزورون وكثيراً ما يؤتى المريض الشفاء بدعائه لان الله يستجيب له لنفع المؤمنين . والآن وقد صار الاب مارون اشدّ حاجةً اليه من قبل ترتب عليه ان يلازمه متفرغاً لخدمته التي لا يحسنها سواه . أجلس الاب مارون على كرسي تلقاء عبدالله وقال له : ما تبتغي من صديقك الراحل يا صديقي الكريم ؟

قال : ان اراك متنعّماً بقربك على قدر حظّي من فسحة الزمـان ، قال الاب مارون : ليس سدّى ارسلك الله الينا اليوم ، فستشهد انطلاق نفسي من سجنها وتشيّع جسدي الى المسكن الاخير . لقد ازفت ساعة زوالي ساعـة تهلل روحي بالمصير الى الوطن المحبوب ، فاوصيـك بنفسك ان تقصر همك على

ابلاغها سعادة اختارين . ويابني مارينوس ان تسد فرحي تجاهه ان يوم ابقه الابدي السعيد ، وهذه وصيتي الى اخواني الرهبان الاعزاء ان اقتصروا من تكريم دفني على اقلّ مما يُصنع لامثالي من الناسكين . وواكبوا نفسي المسكينة بصلواتكم الى امام المنبر الرهيب . امّا ابني مارينوس فليغمضْ عيني بيديه الرئيفتين ولا يذرف ولا نقطةً من دمعه حزناً عليّ ولا يفتح منفذاً لدخول الجزع الى قلبه الرقيق ، وقد حفرت في صدره وصايا يترتب على حفظها سعادته في هذا الدير . اغفروا لي يا اخوتي وانا غافرٌ لكم كما غفر لجميع الناس مخلصنا الرب يسوع المسيح . حلّني يا ابانا الرئيس من قيود مساويّ لانطلق بسلام من قيود هذا الجسد الكثيف — فتردّد الرئيس في منحه الحلّ السرّي وقال : بعافيةٍ انتَ يا ابانا فلمَ توجع قلوبنا بهذا الحديث . قال : حلّني يا ابي لتخرج نفسي بسلام . قال الرئيس : ما هذا الاحاحُ وانتَ في حالٍ من الصحة لا تبرّره . قال : صوتٌ من السماء صارخٌ في اعماق نفسي ان ابتهج يا مارون فقد اتممت جهادك وهُيئ لك اكليل الثواب هلمَ فخذهُ من يد الملك السماوي العادل الكريم . فأفرغ عليّ حلّةَ العرس لاجلس بلا وجلٍ في وليمة سيدي يسوع المسيح . وجثا قارعاً صدرهُ معلناً ندامتهُ ومحبتهُ الكاملة للرب يسوع فمنحه الرئيس الحلة السريّة والغفران الكامل وقال الحاضرون : اذكرنا يا ابانا اذا اتيتَ ملكوت الله . فبسط الاب مارون ذراعيه ورفع عينيه جهة السماء وقال : ايها الرب الهنا الكثير المراحم الذي لا يفرغ جودهُ ولا تُحصى مواهبه بارك هذا الدير وعبيدك المنقطعين فيه الى عبادتك وجميع المحسنين اليه بايّ وجهٍ ، جازهم يا رب في احسانهم اليّ انا عبدك الحقير ، وليشملهم امانك وحبّك وحلمك الى الابد . ثمّ حدّق في ما فوق فاخذه انجذاب وفارقته قوى الحواس وجعل يلفظُ كمن يرى في حلم كلمات متقطعة : ماذا أرى ؟ الشريف عبدالله على قدّمي المذبح في ثوبٍ رهبانيّ . سقياً لك ايها الصديق المتقي الله ها انك قد توشحتَ بالقداسة والبر — مارينوس المحبوب الشبيّ . اوّاه ! اوّاهُ ! ما هذا الذي أراهُ يسعى دائرًا من حولهِ كأنّما يريد بهِ شرًّا . افعى هائلة المنظار فغرت شدقيها ، الحذر الحذر يا مارينوس ابني . قد آلمته لدغتها . واحرّ كبداه ! ها هو يتململ من شدّة الخوف والألم . لماذا لا يُعالج ولا تُراق تنزية على قلبه

الكسير . لِمَ هذا الاجماع على خذلهِ . ما لي اراه مزدرًى منبوذًا ومقصًى عن العيون . تفجرت ينابيع دموعه فحفرت خدودًا محزنة في وجنتيه . كيف امسى فريدًا وحيدًا لا مؤنس له ولا عشير . لا تقنط يا بُنيَّ ولا ينل منك الفشل ان الروح التي فارقتك لن تبرح ترفرف فوقك وحواليك . تقوَّ ، تجلَّد ، تعزَّ ، فان مجدك في النعيم لا يُقاس به هوانك في وادي الدموع . ما اجمل رتاجك المرصع يا اورشليم . مَن هذا الجالس على عرش السحاب مكللًا بلامعات النجوم . من هذه الملتحفة بالشمس المكللة بالكرامة والمجد والبهاء . من انا يا سيدي فتخرج لاستقبالي بهذا الموكب العظيم من اهل السماء . أسرعي يا نفسي أسرعي أخرجي من هذا الجسد الترابي الحقير ، ارتفعي الى ما فوق افلاك الكواكب النيرات ، ارتفعي حلقي الى حيث ينتظرك ملك المجد . خذ يا الهي هذه النفس التي ذابت في حبك وأحرقها التوق اليك . وعند لفظهِ هذه الكلمة الاخيرة لفظ روحه الطاهرة بهدوء وفرح وسلام . فبكى مارينوس وصاح بصوت يخنقه الشهيق : ابي ! ابي لماذا تركتني . لماذا لا تأخذني معك . واحزني لم تنقضِ ايامُ غربتي بعد . ها قد توارى دليلي الامين وانا في منتصف الطريق . ثم دنا من الاب مارون فاغمض اجفانه وهو يبكي ويقول : ايتها العينان النقيَّتان اللتان طالما ألقتا عليَّ نظرات رعايةٍ وحنوٍ واشفاق . اغتمضا على وسن الراحة والسلام الى يوم تنفتحان للنور البهي الموكل به البقاء . ثمَّ قبَّل يده قائلًا : الى ثواب النعيم ايتها اليد الرئيفة التي افاضت عليَّ سوابغ الاحسان .

وكان كلٌّ من شهد هذا الموت الصالح يقول في نفسه : حقًّا ان هذا ليس بموتٍ انما هو انتقال من الموت الى الحياة . وقال عبدالله : ان الحسد على الموت اغرب ضروب الحسد . لكن من لا يحسد على مثل هذا الموت فهو احمق لا لبَّ له . فيا صديقي ونسيبي الراحل الكريم . قد اوصيتني بان املأ الفراغ الذي تركتَ ، فها اناذا منذُ الساعة منفذٌ بلا تردُّدٍ ومن وجه الكمال ، تخليت لهذا الدير عن كلّ ما ملكت يدي ما عدا حصةً افرزتها معاشًا لابنتي التي تبتلت الى الله منذ عامين . فهلَّا اجد لديكم رحمةً لنفسي فانضمّ الى جماعتكم المقدسة واكون فيكم الراهب الاوضع والاخير ؟

فاجابه الرئيس وقال : قلوبنا مفتوحة لك وما انت الّا منحةٌ من فضل

مه لما ستكون فيه . كبر وتوعر . فما عليك الا ان تمضي فتدبر شؤون بيتك ثم تعود الينا خالياً من كل هم قبل ان املاكي صارت وقفاً مؤبداً لديرك وتقودي نصيباً للساكنين اخوة المسيح ، ومنذ الآن احمل الصليب واتبعه غير ملتفتٍ الى الوراء . فقام الرئيس وباركه وسأل الله ان يطبع على مقاصده ختم الثبات . وفي هذا الاثناء دُقَّ جرس الدير دقات حزنٍ متتالية فحُمل الميت الى الكنيسة واوقدت حوله الشموع طيلة الليل ، ولبث مارينوس جاثياً بجانبه كشمعةٍ حيَّة يحرقها الحزن مُخمدًا بالصبر والتسليم والصلاة غير ان ذلك لم يقوَ على نزع الطبيعة مرهف شعورها بفقد من تحبه كأبٍ وتعهده كاكبر محسن وبكان ملاك حارس فكان يغالب العاطفة بافكار من الايمان يعزيها بمثل هذا الكلام : أبي أأصلي من اجل روحك الطاهرة ام اسألك الصلاة من اجلي انا الشقيَّ ؟ أأبكي لخروجك من هذا العالم الزائل ام افرح بانتقالك الى العالم الاسمى الذي ليس لسعادته انقضاء ؟ انا بين الطبيعة الضعيفة والايمان القويّ فان بكيتك فلأن فراقك نفذ قلبي الى الجلجلان وان تجلدت فلاعتقادي انك صائر بالموت الى الحياة ومن ارض الغربة الى الوطن السعيد . ثم مستريحًا واجعل عين روحك الى مَن تركته في ارض غربته تحدق به المخاطر من كلّ صوب ، لا ينلْ من نفسي الجزع فخلاصُ الرب حاضر وموعد اللقاء قريب ولن يكون من من بعده افتراق .

في اليوم التالي دُفن الاب مارون مأسوفاً على فضائله الجمَّة وبكاهُ عبدالله بكاء من فقد احبّ الناس اليه وعاد النَّاك فاجتمعوا يتبادلون عبارات التعزية ، حينئذٍ قال الرئيس لعبدالله : ها قد رأيتَ تعبير حلمك وورثتَ سيرة صديقك الذي أخلى لك كوخه لتملأ فراغه وتنسج على منواله ، ونحن تنفيذًا لوصيته لك بتلميذه مارينوس نرغب اليه ان يتخذك ابًا له فيلازم صحبتك ويتوفر على اطاعتك وخدمتك في كلّ ما تدعو الحاجة اليه .

٥

لقي مارينوس في صحبة عبدالله من الملاطفة والحب والايناس ما همَّد عنده جذوة حزنه على مؤدّبه ورفيقه وحبيبه ابيه في المسيح الاب مارون . وتقضت له ايام جميلة اتته بما لذَّه من اثمار الفوائد والتعزية والرضا والسرور

وكان يقوم بخدمة ابيه الروحي الجديد في شؤونه الروحية والزمنية بطيب نفس وفرح ونشاط ويترقى في مدارج الكمال ترقياً محسوساً أعجب به اخوته الرهبان واولد فيهم حسداً مقدساً اذ كان يحرز بـه التفوّق على كثيرين تقدموه في السيرة النسكية وشاخوا في ممارسة الزهد والتقشف واطلاب الفضائل ولم يبلغوا مبلغه. فكانوا لذلك يحيطونه بالمحبة والاكرام ويكبرون فضله وفطنته ويعوّلون في شؤون كثيرة على مشورته ورأيه. وكان يمارس صُنع الخوص على مألوف عادته ويحمل مصنوعاته الى المدينة فتـلاقي رواجاً عظيماً لكن الرئيس كان يعفيه احياناً من هذا العمل ليصطحبه في زياراته النـادرة ذهاباً في ساعات من النهار لا يفوتها معها حضور الصلاة الجهورية في الدير.

وكان ذات يوم ان زائراً قدم الى الدير فسأله البواب عن اسمه وحاجتـه فقال: انا كنعان رزق من ضواحي طرابلس فادعُ لي رئيس الدير انَّ لي كلاماً اقوله له: قال البواب: استرحْ يا سيدي من تعب الطريق إجلس على هـذا المقعد فاجيئك بكأس شراب وعمّا قليل تنتهي الصلاة فاخبر الرئيس بقدومك — فقال: لا يسعني الانتظار ولا بي عطش فاشرب. انَّ الامر خطيرٌ واولى بان يُقدَّم على الصلاة. فمضى البواب ليوقف الرئيس على الخبر وجلس كنعان يغالب ما يساوره من غضب واضطراب يقول في نفسه: يجب ان اقمع سورة الغضب لاني ان رفعتُ صوتي اسمعتُ كل من في الدير فيتسع الخرق وتشيع الفضيحة. وربما تسأح الراهب بالانكار وقال: اثبت زعمك وندّعاك، هات شهودك، فمن يشهد لي؟ ان الحادث في طيّ الخفاء، ومن رأى في الظلمة ليشهد في النور. أأشتري شهوداً؟ هذا في طاقتي. وشهادتهم على الراهب لا تحسب زوراً وان لم يروه لان الجريمة جريمته ولا موضع للريب. وان لم يكن هو الغريم المجرم فاثمه على ابنتي لا عليّ لانها هي التي أجرمته متجرّحةً باسمـه وبمكان الجريمة وزمانها. لكن هل يحلّ لي ان ارشوَ احداً ليشهد بما لم يرَه قط ولا اتصل بعلمه من وجه؟ هذا ينكره الضمير فان فعلته فقد ابحتُ الكذب والجور وصرتُ آثماً ممن اتيتُ لاشكوهُ بالاثم. اذن سأحمل النفس على الاخذ بجانب اللين فان نبا حدُّهُ وقصرت يدهُ رجعتُ الى الشدّة وارهفتُ حدّي ولكلّ حادثٍ حديث.

اقبل الرئيس على كنعان باشّاً له ومبتسماً له ، فرأى في وجهه جهومة واكفهراراً بادَيين . فقال له : مالك الصديق الكريم معتماً على غير عادته ؟ فبرزت من صدر كنعان أنّة المكروب وقال : لقد عركني الدهر عرك الرحى بثفالها فكيف البس له غير هذا الوجه العبوس . قال الرئيس : غمّك غمي . ابالِ رُزئتَ ام بعزيز ؟ روحي فداك . قال كنعان : رُزئتُ باغلى من المال وباعزّ من كل عزيز . قال : زدتني قلقاً واغتماماً . الا بماذا رُزئتَ ؟ قال : بما لا يعدله في نظري شيء : بشرفي ، بسلام نفسي ، بكرامة بيتي ، بنقاوة عرضي فماذا بقي لي . فتعاظم قلق الرئيس وقال : لقد اخذتَ تصدّع كبدي اشفاقاً عليك . فما هذا الذي دهاك ؟ قال : لا يكن بيننا ثالث . فأغلق عليهما باب الغرفة فتنهّد كنعان الصعدا . وقال : الفضيحة في بيتي والعار يشملني كالرداء . وقف دولاب اعمالي وضاقت بي فسحات الارض . افلا تنتقمنّ لي ؟ قال : ممن وفي ايّ جرم ؟ — قال : من راهبك المُستهتر وفي اذلالهِ ابنتي . فغشّى الكدرُ وجهَ الرئيس . وقال : يا للغرابة . أعلى مثل هذا المنكَر يُقدم ناسك من دير قنوبين . وفي بيتك الحصين تكون من ناسكٍ هذه الفعلة الشنعاء ! من يصدّق هذا ومن سمع بمثله في هذه البلاد ، ابن رهبان قنوبين من بيوت الناس فيُتهموا بمثل هذا العار؟ مَن ذلك الراهب أتعرفه يا كنعان ؟ قال : هو مارينوس العاهرُ الخسيس . فاخذت الرئيس قشعريرة وقال : وَي . وَي ! تنزهت الفضيلة وترفّع الكمال ! ومضى كنعان يقول : هو ذلك المرائي المخبّ اخبثَ رذيلة تحت اقدس رداء . هو ذلك المتزيي بزيّ ملاك النور وهو شرٌ من ارواح الظلام . — فوقع هذا الكلام وقع السهم الناري في كبد الرئيس فتنهد وقال : لئن رأيتُ بأمّ العين ذلك الراهب القديس يفعل ما تشكوهُ به لكذّبتُ عيني وقلتُ انه بريء . مَن هذا الوقوحُ الذي لم يتأثم من رشق البراءة بسهم الافتراء ؟ — قال ابن الاعتداء وهناك اقرار الفتاة نفسها فريسة شهوته ونذالته . قال الرئيس : بنتك تقول هذا ؟ — قال : بنتي نفسها — ربما تكلمت زورًا . قال : لا سخيمة في صدرها منه ولا ثأرَ لها عليه ولا عرفته ولا رأت وجهه الّا يوم اتى منك لزيارتي وفوجئنا بسقوط الثلج بغير هوادة فامسكتكما للمبيت في منزلي الى الصباح . قال الرئيس : لا كانت تلك الليلة ولا كان الحاحك علينا بالمبيت في منزلك .

انَّ مارينوس اعفُّ من ان يلوّث عرضه واقدس من ان يخون ربه بارتكاب فاحشة. قال : وبنتي ابعد من ان تفتري على راهب بري. بتهمة جريئة فحشاء.. قال الرئيس : يقع لبعض النساء ان يتهمنَ بريئاً لاغراض في انفسهنَ . — قال: يقع ذلك اما لاعتيادهنَّ الشرَّ او لحكيدةٍ تُدبَّرُ على ايديهنَّ او طمعاً في اجبار المتهم على التزوج بهنَّ - اما فتاتي فليست مظنّة ولا لواحدٍ من هذه البواعث الثلاثة . — قال الرئيس : ومن النساء من تتهم الرجل تشفّياً كما وقع ليوسف مع امرأة فوطيفار . قال : اعذراء وفي عروقها اكرم دم وانقاه تجرؤ على مراودة شاب لم ترَهُ من قبلُ حتى تسلّم شرفها اليه وليس لها من رجاء الاقتران به ولا قدر ذرّة ؟ قال الرئيس: أراهبٌ يقيم في الدير عشراً من السنين وعليه من الرقباء عيون لا تغتمض فلا يرون عنده عيباً ولا ظلّ عيب وقد بلغ من الحظوة لدى الله ان كرّمه بصنع الآيات على يدهِ ، ايقدّر ان هذا الراهب العجائبي يسقط فجأةً من اسمى ذرى القداسة الى احط دركات الرجاسة متمرّغاً في اخبث حمأة الفحشاء ؟

— كنعان : لوسيفوروس تدهور من اعالي السماوات .

— الرئيس : لا يؤاخذ احدٌ بذنبٍ حتى يُثبت انه فاعله .

— كنعان : ولا يبرأ مُتهمٌ ما لم تُثبَت براءتهُ .

الرئيس : نُحضر مارينوس ونستجوبهُ ، فان اخذناهُ باقراره او بما يؤيد اتهامهُ حملناه على اشدّ العقوبات القانونية والّا فهو لدى العدل براء . ونحن في الحالين شركاؤك في الاسف لهذا الحادث المشؤوم . لان بيتك الكبير عندَ قويٌ لديرنا من عهدٍ بعيد . قال كنعان : لا اشك في صدق مودّتك ولسانك. عسى هذا الحادث لا يصير علّةً لهدم بناء شُيّد على اساس الصداقة والمبدأ والدين . استدعِ الراهب لنسمع ما يقوله في التحقيق معه . فبعث الرئيس من يدعوه ، وانطلق كنعان يقول : آهِ يا ابانا ما أمرَّ خسارة الكرامة والصيت في نفس الرجل الكريم . لو انَّ النار التهمت بيتي وايدي الجور ضبطت املاكي وبليتُ بما بُلي به ايوب في دهره ولم يلصق بعرضي الدنس لهان عليَّ البلاء. لما بقي لي من حسن السمعة بين الناس . اما وقد رُزئتُ باقدس ما عندي واكرم ما احتفظ به لكرامتي فصار الموت احبَّ اليَّ من الحياة .. فرثى الرئيس لحاله

وعالج ان يهوّن البلاء عليه قائلاً : لا يعظم الخطب في نفسك وله شأن البشر في كل عصر ومصر . وانت في انحن لتصحيحاً للفضيلة وفي الصبر لدليلاً على سمو الهمم وكبر النفوس . وما يُسقط الانسان من كرامته الا ما اراده من عار وسعى اليه . وانتَ بريء من خطيئة غيرك لدى منبر ضميرك ومنبر ديّان البشر وفي حكم ارباب العقول .

وبينما هما في هذا الشأن حضر مارينوس وقال لبّيك يا ابانا الرئيس ، فسأله الرئيس : هل تعرف هذا الرجل ؟ قال : لا . لاني عاهدتُ عينيَّ الّا تنظرا في وجه انسانٍ فانا اعرف النـاس من اصواتهم لاني ابصرهم باذني لا بعينيَّ . فحملقَ فيه كنعان وقال : زِهْ زِهْ ، من رأى قط مثل هذا الدهاء . اما تعرفني يا مارينوس ؟ فلبث مطرقاً على دأبه واجاب : بلى . من صوتك عرفتك انت كنعان رزق صديق هذا الدير المحسن اليه . قال الرئيس : قلت انك لا تعرف الناس الّا من اصواتهم أفأنتَ تبصرُ باذنك ؟ قال : تقدمتُ فقلتُ اني عاهدتُ عينيَّ الّا تنظرا الى وجه انسان . وانا على هذا العهد منذ اتيتُ هذا الدير فهل رآني احدٌ اوجّه نظري اليه ؟ قال الرئيس : وضحت حجتك : لا رأيناك مرّةً تنظر الى احدٍ منا ولا عرفنا حتى اليوم لون عينيك ، لانك لم تحدّث احدًا الا كنت مطرقاً تنظر الى الارض ، وها انتَ الآن مطرقٌ على عادتك . فهزّ كنعان رأسه وقال : هوذا جلدٌ حمل على جسم سرحال .

وقال الرئيس : هل تذكر ليلة مبيتنا في منزل الشيخ كنعان ؟ قال : نعم . قال : رأيتُ كنعان وخادمة ونفرًا من اهل جيرته — قال كنعان : أرأيت كيف يتحشى الاتيان بذكر مَن يهوله ان يذكره ؟ وعاد الرئيس يستجوب مارينوس قال : ألم يكن ثَمَّ احد غير هؤلاء الذين ذكرت ؟ قال : بلى ابنة كنعان ، قال : لماذا لم تذكرها في مَن ذكرت ؟ قال : توهمت انك لا عنها تسأل لانها ربّة البيتُ فذكرها من قبيل العبث . — قال : ماذا وقع لك في تلك الليلة ؟ قال : ما يقع لي في كل ليلة ، قال الرئيس قل ما وقع لك مما لم يقع لك في غير تلك الليلة — لا شيء . الم نكن كلانا معاً في ضيافة صديقك ؟ فما عسى ان يكون الشيء الذي حصل من كرمه غير ما حصل لك وكنت ترى وتسمع ما اراه انا واسمعه .

قال الرئيس : لا عن هذه الشؤون اسألك . اما وقع لك شيء يشقّ عليك ان تكشفه ؟ ــ باطني مكشوف لرئيسي كظاهري . ــ اما حدث لك ما يكدّر صفوَ ضميرك ؟ ــ لا عصمة لانسان تحت السماء لكنني لا اعلم اني اتيتُ امرًا على خلاف إرشاد الضمير . ــ يا ابني ان الجسد ضعيف والانسان هدفٌ للتجارب ما دام في انفهِ نسمة حياة . وعلى قياس ما يرتقي في سلّم الفضائل يتنطّس ابليس لاسقاطه واصطيادهِ ، فان كنتَ قد عثرتَ فلا يعقك الخجل عن الاعتراف بعثرتك . لا تنسَ ان لك تلقاء ابٍ يحبّك ويرثي لضعفك ويرحمك ــ ففطن مارينوس الى ان الباعث على هذا الحديث الإظنان به ، فقال في نفسهِ هوذا فرصة سانحة للتشبّهِ بيسوع في احتماله العارَ والهوان والسبَّ والشتم واللطم والهزء والتعيير حتى الموت مصلوباً بين لصين ، ومع كونه بريئًا وقادرا على حطم حسّاده وصالبيه وتبرئة نفسه امام قضاته الظالمين سلّم نفسه الى ايدي قاتليه كخروفٍ تخزُّ عنقه سكين الجزّار وهو لا يفتح فاهُ . اجل ! اني لم اعرف بعد حقيقة التهمة المراد الصاقها بي لكنني ادركتُ انها تهمة بفعل قبيح ، وكونها زورًا وافتراء يزيدني سرورًا بها ليكون صبري عظيماً وأجري أعظم عند الحاكم العادل العالم بطويات الصدور . وعقد العزمَ على التسليم الى مشيئة الله والرضا بايّ حكمٍ ظالمٍ يُبرز في حقهِ . وعند ذلك فتح فاهُ واجاب قائلًا : ان كنتُ استحي بخطيئةٍ امام الناس فلأن استحي بها امامَ نفسي وامام الله أولى . لكنني لا املك الّا القول مع النبي : بالاثم صُوّرتُ في بطن امي . قال الرئيس : هذا كلامٌ لا يفيد اعترافاً بخطيئةٍ معيّنة . ألم توانبك ولا تجربة في بيت صديقنا كنعان ؟ قال : لا إخالك تسومني الشكاية على نفسي زورًا باثمٍ لا اعرف اسمه ولا جنسه ولا مادته ــ قال : حسبكَ مراوغة فانك لن تبرّئ نفسك بمثل هذا الكلام . ــ قال : لا مراوغة في نطقي ولا انا محاولٌ تبرئة نفسي من ذنبٍ . العلي متهمٌ بمنكر ؟ قال : باقبح المنكرات . قال : تجدّفتَ يا الله . بايّ مُنكرٍ يا ابانا الرئيس . قال الرئيس : تكلم يا كنعان . فوجّه كنعان الى مارينوس نظرة حاقدٍ مزدرٍ وقال : ماذا فعلتَ بابنتي يا فاجر يا خالع الحياء ؟ فرفع مارينوس عينيهِ جهة السماء وبارك الله الذي اهّله لاحتمال هذا الشتم المُهين . ثمّ قال لكنعان : ماذا فعلتُ ؟ قال : ماذا فعلتُ ! دخلتَ

بيتي فاكرمتُ مثواك وأحنلتُ ما عليك من ظاهر التوهد ومخافة الله . حسبك ملاكاً يجلب الينا البركة والسلام التمنتك على الثمن واغزَّ ما لديَّ فكذبتَ ظني وغدرتَ بي . افترستَ عفاف ابنتي العذراء وقذفت بي الى اعمق هوى التحسّر والشقاء . مزّقت عرضي تمزيقاً لا يُرقّع وألبست اسرتي عاراً لا يُمحى وانتَ على ذلك تحاول ان تحيك ستراً لفضيحتك الشنعاء . — فاعتصم مارينوس بالدعة ورباطة الجأش وقال : أتجربني تشاء ام هذا كلام ترسله في سبيل المزاح؟ — فاستشاط كنعان غضباً وقال : ويحكَ يا خبيث ما شأني معك فاجرّبك ، ومتى اسمحتك مزاحاً ، وهل يُمازحُ في مثل هذه الشؤون ؟

قال : هل اثبتَ الجريمة عليَّ وبماذا ؟ فدلف كنعان الى الباب ونادى : منصور . منصور . جيءْ بالولد . فلمّا اتى به . التفتَ كنعان الى مارينوس وقال مشيراً الى الطفل : هاك اثبات جريمتك . هذا الطفل ابن خطيئتك الخسيسة ايسعكَ الانكارَ بعد هذا الوضوح ، من اين هذا الطفل ولم يدخل بيتي رجلٌ سواك . وباسمك تصرّحُ ابنتي فريسة اغرائك اللئيم ، فلبث مارينوس معتصماً بالصبر لا يبدو عليه شيء من الاضطراب وقال : ان اذن الله بان يلصق بعبده هذا العار فانا اقبله بملءِ الرضا والسرور .

قال الرئيس لكنعان : قد كنتُ لمتك لخروجك عن حدود اللياقة الذي رميته عن قوس الغضب اماً وقد رأيت هذا الطفل فاعذرك واكاد انا نفسي اصير الى ضيق صدر يخرجني عن الوقار ، فلو كانت الفضيحة مستورة لكان الامر اهون علينا وعليك . غير ان جسامة الفعل لا اراها تعزّز اتهام مارينوس بل تضعف البيّنة عليه . لان ماضيه نقي لا يتفق وهذه الفعلة الفحشاء . عرفناهُ يتأثم من عشيان اصغر الصغائر فكيف نقدّر سقوطهُ فجأة في اكبر الكبائر . ان التهمة لا تزال محفوفة بالغموض . فإمّا ان يؤخذ من اقرار فمه واما ان يدعم اقرار الفتاة ببيّنة لا تُدفع والّا فانه بريء اقلّه تجاه القضاء . قال كنعان : قد يفعل الرجل منكراً على عيون الناس فاذا قيل له اجاب بالانكار فكيف اذا غشيَ المنكر في طيّ الخفاء . الا اين نجد شهوداً لفاحشة وقعت في خلوة وتحت ستار الظلام . فما دامت الفتاة مصرّةً على اقرارها لا تنفك الجريمة عالقة بالغريم المتّهم . قال : لماذا نصدّق الفتاة المتّهمة ولا نصدّق الراهب المظنون .

قال : لان عارها واضحٌ وعاره خفيٌ. فكذبها لا يبرّئها وكذبه قد يبرّئه.
قال : قلتُ انَّ في القضية غموضاً فلا املك قبول التهمة في حقّ راهب يُثنى على تقواهُ وقداسة سيرته بكل لسان . فان شئتَ ان اجمع مشيريَّ وشيوخ الرهبان للنظر في دعواك فعلتُ ــ قال : افعل . فاستدعى الرئيس ستة من النساك الشيوخ وقال لهم : مُنينا يا اخوتي بتجربةٍ صعبةٍ تقصم الضلوع وتستنزل الدموع . هذا صديقنا كنعان الساعة يشكو اخانا مارينوس بفعلة سوء. انتجت هذا الطفل الذي ترونه على ذراعي منصور .

فصاحوا كلهم بصوتٍ واحد: العياذ بالله ، العياذ بالله ، ان قداسة مارينوس في معصم من التهم ، ليس في نساك هذا الوادي من يغالي في تذليل الجسد وكبح شهواته كهذا الناسك الشاب الذي يحمل الآن عليه اهل الظلمة بالسنة الافترا.. وقال آخر : لا تُقبل شكوى على راهب ما لم تؤيدها شهود وبينات. قال الرئيس : امَّا الشاكي فالشيخ كنعان واما البينة فهذا الطفل وزعم امه الاثيمة وليس على اثم السفاح من شهود . وقال اخر : من طبع المرأة الكذب والافترا. في مثل هذا الحادث الخسيس ، ووجّه الى مارينوس هذا السؤال : ابوسعك ان تدفع التهمة وتثبت براءتك ؟ ففكر مارينوس في نفسه وقال في قلبه : ان قلتُ الحقّ اثبتُ نقاوة كفي وخسرت اجر صبري على الجور ، وان انكرته كذبتُ فالصمت افضل الخطط الثلاث. سكت هنيهةً ثمَّ قال: ان شاء الله ان يدفعها عني فليس على قدرته عسير . فقال احد المشيرين : جميلٌ بالراهب ان يتوكل على الله ويسلّم اموره اليه كل حين ، لكنَّ موقفك الآن موقف مظنون امام قضاةٍ فان استطعت ان تبرّئ نفسك فافعل والا قبّحت سمعتك وسقطت من رتبتك ولم نسلم نحن من عارك وان كنا ابرياء . قال مارينوس : اذا كنت بريئاً في عين الله فما ضرني ان اكون آثمَ الخلق في عيون الناس . قال كنعان : ما سمعنا من فمه جواباً الّا وكان مفرغاً في قالب الابهام ، اما كفى بارتباكه وخنوعه الباديين حجةً عليه ؟ أجابه الرئيس وقال : من الراسخين في تقوى الله الثابتين في محبته من اذا ناله ظلمٌ لا يجب ان يدفعه وان قادراً على دفعه لان صبره على الاضطهاد يزيد في اجره المنتظر من عدل الله . فاذا سئل في مثل هذا الموقف يجيب بكلام لا يلامسه الكذب ولا

يسطع من خلاله الحق . قال كنعان : الفعل مفعولٌ والمرأة تعيّن الفاعل باسمه وهذا يلفُّ اقراره بالغموض وانا ما يجديني هذا الاستقصاء بعد ان تمزق عرضي واصبت معرَّة بين الناس . ولو شئتُ انتقاماً لرفعت شكواي الى القضاء المدني واستصدرت الحكمَ الذي أشاء . لكنَّ العفو عند القدرة اجمل خلّةٍ في الرجل ، فها انا احملكم عبء هذا الطفل الذي لم يسع إثمه ان تعطف عليه اماً ابنتي فتؤدّب وتتوب ، غفرت لراهبكم مجرماً او بريئاً فتدبَّروا امره على ما ترون . والتفت الى خادمه منصور وقال : ألقِ هذا الطفل عن ذراعك واتبعني ففعل وانطلقا .

حينئذٍ خاطب الرئيس مشيريه قائلاً لهم : كلكم آسفون لنزول هذه الكارثة بصديقنا كنعان ، ومع انها قد حطمته حطماً كصاعقة انقضت عليه ابت مروءته الّا ان يرعى عهدنا فلم يشأ ان يشهّر راهباً برفع شكواه الى القضاء المدني رعياً لحرمة الديانة وصوناً لسمعة الرهبان . فقال احدهم : اجل لقد تصدعت اكبادنا اسفاً ، ولكن ما فائدة الاسف . قال الرئيس : ما نصنع وقد نفذ المقدور . ما رأيكم في مارينوس أيستوجب تأديباً وفي هذا الطفل من نقيم عليه ؟ قال مشير : ينبغي ان يُقطع العضو الفاسد حرصاً على الجسم من تسرب الفساد اليه . فان لم يعاقب المجرم اعترت الرذيلة وذلّت الفضيلة واستفحلت الشهوات . ــ وقال آخر : لا نعاقب اخانا اخذاً بقول بنتٍ خاطئة . وقال آخر : فليُسأل مارينوس مرةً اخيرةً فنرى ما يترتب على جوابه من تبرئةٍ او قصاص . فتكلم الرئيس الى مارينوس قال : إنَّ ماضيك يشفع بحاضرك فان كنت مذنباً فاعترف بذنبك والله غافر للتائبين ، وان كنت بريئاً فاعلن ببرائتك لتدير امرك على نور الحق ولا تحمل وزرك بايجاب قصاص عليك . قال مارينوس : خطاياي اكثر عدداً من شعر رأسي . قال : اذن انت معترفٌ بخطيئتك . ــ قال : الله ادرى بمكنونات الصدور واعلم بمسالك الانسان . ــ قال : اوَ تقبل مايوجب عليك من كفارة قاسية ؟ قال : بكل ارتياح ، فانه لا يحسن بنا ان نقبل عطايا الله ونتذمر من بلاياه يوم الافتقاد . وبعد ان تفاوضوا طويلاً في شأنه قال مشير : لقد بدا اعترافه بذنبه فلا يحسن بنا ان نخلّيه يساكننا في ديرنا وقد صار كحجر عثارٍ وصخرة شك . فتصدى له مشيرٌ آخر وقال : ان الله يريد رحمةً لا ذبيحة ،

الحضور للرحمة ... يرحموا ثم خرجوا ... ورأى راي ... فقال : ان الرحمة لا تأتي بعدل وقال لمارينوس : يا ابني لم تستطع او لم تشأ ان تبرئ نفسك فانا أحلّك بمشورة هذا المجمع وجرياً على تقاليد آبائنا القديسين اقضي عليك بقذ ثوبك الرهباني وقطعك عن شركة الرهبان. ودنا ليقدّ ثوبه فجثا على ركبتيه ضارعاً باكياً واخذ يقول : بعيشك يا ابي ، بحبة يسوع المسيح لا تنزعنّ عني هذا الثوب المقدس الذي اشتريته بثمن غالٍ ، خذوني حياً الى القبر مكفّناً بهذا الثوب الذي بعت كل شيء واشتريته لالبسه بفخر في الدير والقبر. اشفقوا فيّ يا آبائي واخوتي واجبروا قلبي الكسير ، يا دموعي اغسلي هذه الارض التي ربما نجّستها بخطاياي ، فرثى له جميعهم وطلبوا الى الرئيس ان يبدل قصاصه بقصاص اخفّ . فقال لمارينوس : لا تنزع عنك الثوب بل تخرّج من الدير معزولاً عن الاخوة في مغارة وتربّي هذا الطفل مقيماً معك الى ان يبلغ السنّ السادسة وبعد ذلك يُنظر في امره ويُؤذن لك بسكنى الدير ان اردتَ ، فهل تقبل هذا القصاص. فسرّي عن صدر مارينوس بعض غمه . واجاب : طوعاً يا أبي وسأزيد عليه بنعمة الله وأيده العاوي . ــ قال : فاحمل ابن خطيئتك واخرج الى كهف تختاره ونحن نحمل اليك القوت ونسأل الله ان يتقبل توبتك ، فأخذ مارينوس الطفل على ذراعه وقال : شكرًا لك يا الله على كثرة رحمتك اليّ ، صفحاً ايها الآباء ، وداعاً ايها الدير المبارك المحبوب . هيهات ان اعود حيّاً اليك ، وانطلق لسبيله مطرقاً متلفعاً بثوب الذلّة والهوان ، مكتئب الوجه متهلّل الفؤاد .

ساق مارينوس ملاكُ الرب الى كهف على مسافة ميلين من الدير في بقعة صخرية تتجافى عنها الاقدام لوعورة مسالكها . مكث في هذا المسكن الجديد ستة اعوام لا يرى وجه انسان غير الطفل الذي أُجبر على تربيته . ولا يخرج من كهفه الّا ليجمع قوته من نبات الارض وحطباً للاصطلاء. بناره في صبارة الشتاء . وكان في بادئ الامر يُحمل اليه الغذاء من الدير اسبوعاً بعد اسبوع فرأى ان التغذي بعشب البريّة ابلغ في قهر الجسد. فسأل ان يقطع عنه طعام الدير لكرهه ان يأكل من تعب غيره مع قدرته على تحصيل قوته بكدّ يديه فأجيب ملتمسه ، وكان يذوق في خلوته لذّة روحية يعجز عن وصفها اللسان ،

ولم يكن لصلاته انقطاع ومتى اغرق في التأمل يحصل له انجذاب وغيب عن الحواس فيذوق وهو على الارض ما يذوقه من اللذات العلى اهل السما. ، لا انيس له ولا جليس في مغارته الخالية من كل اثاث وماعون الّا ذلك الطفل الملاك ، فكان لا يترك الصلاة الّا مضطرًا للاعتنا. بشؤونه ، وكان انه وهو يلاعبه عشية يوم رأى النعاس يكحل اجفانه بالذبول فاخذه الى فراشه وجلس الى جانب [illegible] متمطقًا في كلامه بصوت رخيم يلقي في السمع مخدرًا من رقة التلب واحد : نم ايها الملاك الصغير . نم على هذا الفراش الذي هيّأته لك يدي من نبات الار[illegible] الجميع ، انتَ كعصفور تخلّى عنه ابواه فسخّرت له العناية الربانية حاضنًا تقوم عليه [illegible] استراح وانمْ وتمتّع بما لذّ من الاحلام . فتلاعبك الارواح الصالحة متراثية لك في مثل سنك الرطبة وجسمك الصغير . لا تلتمس قوتك بالبكا. ولا يكن شرابك من مدمعك ، فان الذي يقوت صغار الغربان المهملة قد نظر في حاجتك الى القوت فأخرج لك لبنًا من ثديي بمعجزة فريدة كما اخرج الما. من صخرة صمّا. لشعبه اسرائيل . ثم تأمّل في عيني الطفل وقال : قد استغرق في النوم فلنحسن في الصلاة . وجثا على ركبتيه ورفع الى الله هذا الدعا. :

اللهمّ يا باسط الارض ورافع القبة الزرقا. ، اني اشكرك لعنايتك التي غمرت جميع ايام حياتي بالحسنات ، حاشا من وثاق الدنيا يديّ . وسهّلت طريق البرّ لقدميّ وارشدتني الى مواطن محبتك وخدمتك وحببت اليّ التزهّد والعفاف . واختطفتني من ايدي الغنى والجاه الباطل العالميّ . وساقتني الى خلوة التأمل والصلاة . ثم حسن في عينيك يا كريم فاعلنت قدرتك بضعفي وحقارتي فنلت بها كرامة ومكانة في القلوب . صنتَ على يدي آيات شفاء واريتني مخابئ الصدور . ولكي لا اذهب مع الخيلا. وتزلّ بي القدم على مزالق الافتخار امرتَ فوائبتني الرزايا واحاط بي لهيب الامتحان لكنك لم تبلني بما يفوق الطاقة بل رحمتني فجعلت لي من كل تجربة مخرجًا اميناً ، ولما نُفيت الى هذا الكهف وجدّ عليّ ضنط الوحشة اسقطت ندى تعزياتك على نفسي الجافّة فانتعش عندي الرجا. وتحوّلت الوحشة الى انس والمرارة الى حلاوة ، وكان يمضّني ان يموت هذا الطفل من سو. الكسوة والغذا. فاعطيتَ صدري لبنًا لقوته وسخّرت بساتر

صحته وحرش طيب وضمير سليم . وها قد ادرك الربيع السادس وهو على امتلاء عافية واطراد نمو في الجسد والروح ، وقد عرفته اسمك القدوس وغرست في في نفسه الليّنة مبادئ ديانتك الطاهرة ودرّبت اوائل خطواته في سبيل وصاياك واترجا انه بنعمتك سيكبر على محبتك وينتهي الى نعيمك الابدي. اعطني كل هذه النعم السنية هبةً من لدن كرمك بدون سؤالي ولا استيهال . افتأذن لي ان اسألك اليوم واحدة تشتهيها نفسي . اني في ظلم الى مشاهدة عرش مجدك يا سعادة القديسين ، فقصّر ايام غربتي فقد الجزت الشوط واشتدّ حنيني الى الوطن ، فاستجب لي يا رب ولينفذ دعائي الى مسمع رحمتك يا رحيم .

وبينا هو يناجي الله وعقله مرتفع الى السماء اذا قادم وقف في مدخل المغارة وقال: سلامٌ ايها الناسك الجليل. فاجفل مارينوس والتفت جهة الصوت واجاب: سلامٌ يا اخي . ولم ينظر في وجهه وسأله مَن تكون وما بغيتك ؟ قال : انا حرمون بن ملكون من قرية في البقاع الشرقي ، سئمت الزراعة مهنة ابي وشققت عصا الطاعة وخلستُ من ماله ما وصلت اليه يدي وهمتُ على وجهي في بلاد الله تتقاذفني الاماكن لا استقرُّ في مكان ، ولي قصة مؤلمة اتيتُ لاقصها عليك . قال مارينوس : لا شأن لي في قصص الناس وقد آليتُ الّا احدث انساناً الّا لضرورة ماسّة . قال حرمون : لا أثقلك بحديث طويل وما باعثي على تحديثك الّا تحسّ ضمير ينغّص عيشي ويُقصي عن نفسي السكينة والسلام . قال مارينوس : أنفّس كربك ان استطعتُ . فتكلم ، قال : اسأت اليك لان لي يداً في ما نالك من هوانٍ وضنك . قال : وكيف كان ذلك ؟ — قال : خطيئتي عظيمة الى الله واليك ، انا فاعل الفاحشة التي وُجهت زوراً اليك . نفد ما كان معي من مال ابي فصرتُ اطلب عملاً فاستأجرني كنعان الذي تعرفه لاعمل في بستانٍ له في طرابلس واسكنني في بيت قائم في البستان ، واعجبه ما رأى من امانتي ونشاطي ومهارتي في تربية الشجر فرتّب لي اجرةً ذات بال واكرمني بالمنح فاصبحت موضع ثقته وبمنزلة واحدٍ من بيته . وكان اذ يجيء الى البستان ترويحاً للقلب تصحبه ابنته اسماء وهي صبيّة ذات وجهٍ بشوش وثغرٍ باسم ورجال رائع ، فيأنسان بي ويجلسان ويسمعان حديثي بارتياح. وصارت اسماء تجيء وحدها احياناً فنتحدّث كاخوين . فاستمكنت بيننا

المودّة وتحوّلت الى رغبة في اتحادٍ حلٍ بعقدٍ لا يحلّه غير الموت. لكننا استوعرنا المسالك لما بيننا من تفاوتٍ في المعتقد والثراء. واستعسرت ان تفتح قلبها على ابيها وكذلك انا بالاحرى. وقامَ في وهمنا ان الطريق الغير المشروع قبلغتنا الى الغرض المشروع، وكانت ساعة شؤمٍ تتالت بعدها الغموم وتراكمت الهموم وبلغ مني الخوف مبلغه من قابين وقدمتُ القرار على الانتحار. فشقّ عليها فراقي وقالت: لا تخف ضرًا فاني واجدةٌ لك مخرجًا يباعد عنك كل خطر. سأتهم الراهب مارينوس الذي بات ليلةً عندنا وتسلم انتَ من كل ظن. فاظهرتُ لها الرضا، وما لبثتُ ان انطلقتُ خفيةً الى حيث لا تراني عينٌ ابصرتني من قبلُ.

تجوّلتُ مدى اربع سنين والخوفُ يتبعني اخاف حتى من حفيف الشجر وهبّ النسيم، ثمّ خطر لي ان اجتاز بالمدينة لاتنسّم الاخبار واعلمَ ايَّ اثرٍ كان ثمّ لنظاعة ما فعلت، فتلطفت في الاستقصاء. فعلمتُ ان كنعان قد باع كل ما يملكه وانفق الثمن في وجوه البرّ واعطى بنته نصيباً وارسلها الى دير تمارس فيه التوبة وتوارى هو عن الانظار فلا يُعرف اين يكون. وكانت ابنته قد اتهمتك لتحوّل الذنب عني اليك. فاسألك بمحبة المخلص يسوع ان تغفر لي انا الجاني عليك، وقد عقدتُ القلب على التنسّك في هذا الوادي المقدس تكفيرًا عن اثمي الشنيع، واحبُّ ان يكون جثوي تحت قدميك مبتدا حياتي الجديدة فتكون مغفرتك فاتحة سعادتي كما كانت خطيئتي فاتحة شقائك.

فاجابه مارينوس وقال: لا سيئة لك عندي ولا في قلب المسيحي موضع للحقد. امضِ في عزمك الصالح واطلب الحلَّ من اثمك في منبر التوبة باعترافٍ وندامةٍ صادقينِ، وانا اسأل اللهَ ان يغفر لك ويثبتك في محبته الى المنتهى.

قال حرمون: امين. وسوف اخفف عنك من عبء هذا الصبي الذي اخجل اليوم ان اراه. باركني فاذهب باطمئنان قلبٍ وسلام. فباركه باسم الرب محب التائبين واستحلفه الّا يعلم احدًا بمكان عزلته ولا بما دار بينهما من حديث. فقال حرمون: لك ما أردت وانطلق لسبيله.

٥

استيقظ الولد من رقاده وقال: أمي انا جائعٌ هل عندكِ ما آكله؟ قال مارينوس. هلمَّ اولًا أقبّلكَ فدنا منه وتلاثما وكان الرب يسخّر غرابًا يحمل

بعد ثلاثة ايام وعشرين ، وصل مارينوس من بعد غياب توحد الرعيين في موضعهما المألوف وكان قد جمع زريبة من عشب تعوّد أكله قصيا وجلسا يأكلان ثم صليا صلاة الشكر بعد الاكل ، وانهما لكذلك اذ سمعا صوت قادم يقول : الشكر لك يا الله لانك هديتني الى ضالتي المنشودة بجهد عظيم . فساء مارينوس ان يكشف الستر عن عزلته المحبوبة وقال بصوت خفيض : خُرقت خلوتنا فينبغي ان ننتقل الى غير هذا الكهف . وناداه صاحبُ الصوت ملقياً عليه تحيّة الرهبان « المجد لله » . التفت مارينوس اليه فرأى عليه ملابس النسّاك فاجابه : « المجدُ لله دائماً » وقال في نفسه : كأني اعرف هذا الصوت . ما اشبهه بصوت كنعان . وجعل نظرهُ الى الارض وقال للرجل : مَن انتَ وكيف اهتديتَ الى هذا المكان ؟ — قال : ألم تعرفني يا مارينوس أإلى اليوم لا تنظرُ في وجهِ احد . انا كنعان الذي نالك منه الظلم على برائتك ونقاوة يديك . ويحاً لابنتي الماكرة فقد اركبتني في حقك مراكب التهوُّر والضلالة والانهيار . ففكّر مارينوس متسائلاً اتراه قد اهتدى ايضاً الى مفتاح سرّي : ثم قال لكنعان بل غفر الله لابنتك فما كانت الّا اداةً في يد العناية الالهية التي تسوق كلّ شيء الى نفع عبيدها المختارين .

فما هذه الملابس التي اراها عليك ؟ قال : ملابس امرىء خبر الدنيا فازدراها واعرض عنها وهام في القفار يلتمس رضا المولى الكريم . لباسه الوبر ووساده الحجر وفراشه التراب وغطاؤه لحاف الهواء .

قال مارينوس : ما جعلك تكبد نفسك صرامة هذا العيش الذي ندر الزحام عليه ؟ قال : خطيئة ابنتي التي وقع شرُّها ظلماً عليك . — افأنت على على يقينٍ من براءتي ؟ قال : كلّ اليقين — قال : من اين لك هذا اليقين ؟ قال : من فم ابنتي باقرار صريح . قال : ما هو اقرارها ؟ قال: ان مارينوس راهبٌ على حسب قلب الله، ان هو الّا ملاك في جسم بشري، ومبلغه من التصوُّن انه لا ينظر البتة في وجه انسان . ولا يفتح اذنه لصوت اغراء . وقالت ان شريكها في الاثم تعاف التلفظ باسمه لما بينها وبينه من التفاوت تربيةً ومولداً وكرامةً — قال مارينوس : ما حملها على هذا الاقرار الذي وددتُ لو انه ما حصل ؟ قال كنعان : مهازُ الضمير تنغّص عليها العيش وذكّرها بالواجب والثواب

والعقاب . رأت في بادئ الامر ان اتهامك اقرب الى التصديق من اتهام شريكها الدنيء ، وساءها منك ترفعٌ كان حقه ان يسرها لو فطنت فكان انها اتهمتك تشفياً منك وستراً لصاحب الجريمة الخسيس ، فلما لجأت الى الدير ورسخت قدمها في التوبة وسلّط الله عليها بلاء قاسياً رجعت الى نفسها واستفحشت إقدامها على اتهام البريء. فاستدعتني واعترفت لي بحقيقة الواقع فاتضحت براءتك ووجب عليَّ الاعلان بها لدى رهبان ديرك، لتردَّ عليك كرامتك ويعظم فضلك وتبرز من غلاف الظنون اشعة نُسكك ونزاهتك ويذهب صيتك مذهب المثل تتحدث به الاجيال . وها انا اسألك الصفح عن تسرعي في الشكاية منك وتسببي لك ما قاسيته من ذلّ وعار وهوان . قال مارينوس: انا الذي اخترتُ لنفسي هذا الحظ ، ولي به فرحٌ عظيمٌ ونعيم . هل أطلعتَ على حقيقة الحادث احداً من الرهبان ؟ قال : اردتُ ان أحدّث الرئيس فابى ان يسمع لي وقال : ليس مارينوس فينا فلا نحب ان يؤتى على ذكره بخير او شر . فطابت نفس مارينوس وقال : نِعمَ الجواب ! فما حال بنتك اليوم ؟ قال : هي راهبة احتأت مخافة الرب قلبها فاصبحت تتحلّى بذكر فضائلها الافواه . قال مارينوس : فليؤتها الرب الثبات الى المنتهى ويجعلها بثواب التائبات في السماء . وانت يا كنعان لا يعنيك شأن التهمة التي رموني بها عن قوس الافتراء . فانها قد عززت صبري وعظّمت أجري ، ولعلها في حكمة الله ضمانة لخلاصي وخلاص بنتك وخلاصك انت ايضاً بما صرتَ اليه من تغيّر النظر في بهرَج الحياة . فاعكفْ على خدمة الله بالطريقة التي تحرّيت وكنْ من جهتي خالي البال مرتاح الضمير. فاني غافرٌ لك ولابنتك من كل القلب بل اعدُّ نفسي مديوناً لكما واسأل الله ان يجزيكما خيراً لقاء احسانكما اليَّ . قال كنعان : سبحان الله الذي غرس في نفسك البارّة كل هذه الاخلاق الكريمة والفضائل الباهرة . أما تأذن لي بان آخذ هذا الولد اليَّ فأنزل عن عاتقك اعباء تربيته ؟ فوثب الولد الى مارينوس وطوّقه بذراعيه وقال لكنعان : لا . لا . انا لا اذهب معك . فقال مارينوس : لو شاء الله ان يقيم غيري على هذا الطفل البريء لما قيّض وصوله اليَّ . انه لفخري لدى الله كما انه لخزيي في عيون الناس . قال كنعان : لنا مقيمٌ في مغارة على مسيرة ساعة من هنا. فان حسُنَ في عينيك ان نتلاقى احياناً

فما عند ما تحب . فاجاب مارينوس وقال : تمشي على رشدك يعيب . على المتقى في الوطن السعيد . قال كنعان : وقيت الملل ولا عجل اليك الاجل . حسبنا ان نكون واحدًا في محبة المسيح . وودّعه راجعًا الى مكان نسكه . حينئذٍ خاطب الولدُ مارينوس قال : أمي : هذا انسانٌ مثلنا ، اهوَ من الناس الذين قلتِ لي ان الله برأهم ليحبوه ؟ قال : نعم يا ابني . والناس كثيرون كنجوم السما . قال : اين يوجدون . — على سطح المعمور . — لماذا لا اراهم أجمعين ؟ لانك في بقعةٍ من الارض صغيرة جدًا ، ولا ساكن فيها سوانا . — لماذا لا نحبي . الى مغاورهم فنراهم ؟ — لانَّ الله يريد ان نمكث في مغارتنا ولا نخالط غيرنا . — وهم لماذا لا يأتون الينا ؟ — لانهم لا يعرفون الطريق . — انا ادلهم على الطريق . — وانتَ مَن يدلّك على طريقهم ؟ — انتِ . — انا احبُّ ان امكث هنا مع الله ومعكِ . — انا كذلك احبُّ ان امكث مع الله ومعكِ . — قالت : اخرج الآن واجمع رزمة من الزهر من كل صنف ولون نقدّمها لآلهتنا العذرا . قال : ساجمع اجمل الازهار لونًا واطيبها ريحًا لاني احب كثيرًا امنا العذرا . وما هي الا هنيهة حتى عاد يركض مذعورًا وقال : أمي ! أمي . اناسٌ مثلنا — قال مارينوس : لا تخفْ . وارسل نظرهُ من الباب فابصر الآتين فارتدَّ على اثره وقبع في اقصى مغارته وهو يقول : ما شأن هؤلا . معنا ؟

وقف امام المغارة ثلاثة رجال تقدّم احدهم الى الباب وسرّح نظره في الداخل فرأى مارينوس والولد فلم يتميزهما لضآلة النور فظنّهما خيالين فارتعب وقال : ابشرٌ هذا ام جنٌّ ؟ وناداهُ احد الرجلين الاخرَين : ان انظر يا قاسم لعلَّ الغزال قد لجأ الى هذا الكهف . فاجاب قاسمٌ وقال : لا اثر هنا للغزال انما هنا ما ينفرُ الغزلان . هلمَّ انظر بعينك يا اميرُ ، فتقدم الامير حمدان فلم يرَ الّا مارينوس والغلام ، فصاح في مارينوس وقال : مَن انتَ يا رجل ؟ قال : انا ناسكٌ منقطعٌ لعبادة الله في هذا القفر . قال الامير حمدان : بل انتَ كافرٌ تعبد الشيطان عدوَّ الله . — قال : بل انا مؤمنٌ على دين المسيح . قال الامير : والله والنبي حبيب الله لئن عدتَ فقلتَ انك مؤمنٌ لاضربنَّ عنقك بهذا الحسام .

قال : عتقي لله فان أذن لك ان تضربه فافعل فان حياتي له وفي يده لا لي . قال : ما جرأك على الاقامة في ارضي ألم يبلغك ان هذه الارض ملكٌ للامير حمدان ، لقد نجّستَ ارضي ونفّرتَ غزلاني من امامي وحرمتني افراح قنصي ، فوالله لئن ضاع الغزال الذي رميته لانشبنّ نبالي في صدرك وصدر هذا الغلام ، فاستولى الخوف على الولد واختبأ وراء مارينوس وهو يشهق في البكاء . وخاطب مارينوس الاميرَ حمدان يستميل عطفه قال : رفقاً يا سيدي الامير . كيف يكون اني انفّرُ طرائدك من امام وجهك وانا لا اتخطى باب هذه المغارة خطوةً الى الامام . ان كنتَ لا ترحمني فارحم هذا الولد الذي ما فعل خطيئةً تستوجب الموت برشق النبال — قال حمدان : أأرحمك وانتَ تردبني ، ما بالك مطرقاً أتراني أحقرَ من ان تنظر اليّ . قال مارينوس : معاذ الله ان ازدري بمخلوق على صورة الله ، فان اطرقتُ فلأني لا استحق ان انظر اليك . فهزّ حمدان رأسه وقال : عذرٌ جميل لو صدق . وكان الامير قد أرسل حمدا احد رفيقيه في طلب الغزال الجريح بين الادغال فاقبل بالخيبة والفشل وقال : يا سيدي فُقد الغزال ، فتأفف الاميرُ وقال : هذا يوم بؤس ونحس . ذهبت اتعابنا ادراج الرياح ، غزالٌ واحدٌ عرض لنا رمينا جرحنا فلم نُصِبه . حملَ ونجا . أفنعودُ الى دارنا خائبين . كل هذا الشؤم من هذا الناسك المشئوم . وصبّ سخطه على مارينوس سباً وشتماً : ويكَ يا بليدُ يا خبيثُ يا سراء ما كفاك ان تكفر بالله مشركاً به حتى تتهرب من العمل المفروض على كل ذي بشر وتتربع في دست البطالة نائماً على زند الوني طول ايام عمرك في مسارح الوحوش ، كأنك لا تدري اني جعلتُ هذه البريّة حرَماً لتنمية الطرائد فاقتحمت حرمي ونجّسته وعبثتَ بسلطاني وعزّي واقتداري . فلانتقمنّ من وقاحتك واضربنّ عنقك واستلّ سيفه معتصباً ليضرب — فجثا رفيقاه قاسم وحمد لدى قدميه يشفعان اليه في مارينوس قائلين : بالله ورسوله المعظّم وتربة ابيك الا وهبتهُ لنا . فهمد فائرهُ وقال لهما : غلبتُما سخطي بالحلف العظيم ، وهبتهُ لكما على شرط ان يبرح هذه الارض ولا يعود اليها . فان جئتُ في العام المقبل والفيتهُ هنا قدمه حلالٌ اروي به تربة هذا الحرَم . فقال مارينوس : يا سيدي ليست حياتي بكريمة عليّ لاني تائقٌ الى حياة افضل لا تنقضي ، ولي ملءُ الثقة بالله انه يتوفاني عمّا قليل فيكون

انك تعود فلا تحدثني فقال: عفوتُ عنك على الشرط الذي ألزمتُك ، لن ارجع بعفوي فتدبّر . ثم انه مضى بمن معه في طلب ما يصيدون .

○

جلس مارينوس والغلام يتحدثان فقال مارينوس : بُنيَّ لماذا خفتَ هؤلاء الناس وقد علّمتُك انه لا ينبغي ان نخافَ الّا الخطيئة لانها تقصينا عن الله ، فاذا حفظنا وصاياهُ ولم نخطأ اليه نكون معه وهو يكون معنا نحبّه ويحبّنا ويحيطنا بأسوار حمايتهِ فلا يصل الينا اذًى ولا يواجهنا خطر .

وفيما هما في هذا الحديث اذا الرجال الثلاثة عائدون اليهما وللامير حمدان أنينٌ تألّم يُسمع من بعيد ، ودنا قاسم من مارينوس وقال : يا رجل الله زلّت باميرنا قدمه فزاغ عظم وركبه عن موضعه فأُغمي عليهِ من شدّة الالم فلمّا عاد وعيه قال : بعدلٍ جوزيتُ لاني خاشنتُ ذلك الناسك واوسعته شتماً وتهديداً وهو يلاينني صابراً على خشونتي ، احملوني اليه لاسأله الصفح فلعلّ الله يشفيني بدعائه ولا يعاقبني باشدّ من هذا البلاء ، فاتيناك نطلب صفحك عنه ونلتمس دعاءك له بالشفاء. فانّ الله يسمع لك لانك من اوليائه الصالحين . فهلّا تقبل شفاعتنا فيه وقد اتاك نادماً على ما فعل ؟ وكلّمه الامير حمدان خاشعاً وقال : ان رفعتَ ألمي وهبتك هذه الحقول كلّها ملكاً لك لا منازع لك فيه وحملتُ اليك من المال والتحف ما يجعل مفارتك قصراً تتوفر لك فيه كلُّ اسباب الراحة والرفاه . — قال مارينوس : بقوّة الله لا بقوّة حقارتي تنال الملتمس . امّا حقولك ومالك وتحفك فلا شأن لي فيها لان كنوز الارض باسرها احقر في نظري من حفنةٍ من تراب .

قال حمد : اشفِ اميرنا يا رجل الله واغنم شكرنا والاجر من ربّك محب المحسنين . قال مارينوس : ليأتهِ الشفاء من لدن الرب المتحنّن القدير . وبسط ذراعيه ورفع عينيه الى السماء ولفظ هذا الدعاء : ايها الآب السماوي الذي لا لا قياس لجودهِ ومراحمه لا تُحدُّ مجدْ ابنك يسوع المسيح ليعلم الكل انه ابنك الحبيب الذي ارسلته لخلاص الجميع . وقال لحمدان : فلتمُدْ جنبك صحيحة وليضمحلّ الملك بقوة الرب يسوع المسيح . إمش على قدميك . فنهض لساعته ووثب ومشى مستقيماً وصاح وقد شمله الفرح واخذه العجب : ما هذه القوة التي

ينجها الله لمحبيه . حقًا انك رجلٌ قديس . بكلمةٍ رددتَ عظمي الزائغ الى موضعه وأقصيتَ عني ألمي المميت فبأذا اجزيك في هـذا الاحسان العظيم ، قال : لا بقوَّتي شفيتَ بل بقوَّة يسوع المسيح فـاياه تشكر على احسانه اليك . قال حمدان : لك الشكر يا يسوع المسيح . وجثا لدى الناسك وقال : باركني يا رجل الله وانا واعدك بان احمي حقوق المسيحيين بكل ما لي من سلطة ونفوذ ، فباركه مارينوس قال : بركة الربّ تشملك ورفيقيـك وذويكم وتفيض عليكم خيرات الارض ومـا ينفعكم من خيور السماء . فودّعوهُ وانصرفوا تاركين اكياسهم والسلاح وفي نفوسهم الاعظام لقدرة يسوع المسيح والاذعان بصحة الدين الذي اشاعه في العمور بقوَّة الكلمة والآيات .

=

فوجئ مارينوس بموجة برد في بدنه ودوران في رأسه واسترخاء في ركبتيه وانكماش في قلبه . فتلقَّى ذلك بالفرح والشكر لله وجلس في فراشه يتمنى على الله ان يجعل يومه هذا الاخير من ايام غربته والاوَّل من ابديَّة وطنه السعيد والمحبوب الذي طالما ارسل حنينه اليه على اجنحة صلواته الحـارة المحلّقة في اجواء المحبة والرجاء . صعودًا الى امام العرش الجالس عليه الحمل محمولًا على اكف القديسين الابكار يُسبح له كل من في السماء بهتاف الفرح : قدوس . قدوس . قدوس .

جسَّ مارينوس نبضه وعدَّ من واحدٍ الى ثلاثين فوجده بطيئًا متقطعًا فطابت نفسه وقال : لقد دنت ساعة الفرج ساعة الانطلاق من حبس هـذا الجسد الكثيف . ما اسعدها ساعة ! ايها الموت المشتهى أسرع واكسر هذه الاغلال التي تمسكني في منفاي ، إحسر اللثام عن وجهك المحبوب ، فانت اجمل في نظري من الفجر البارز من غلاف الظلام ، عجبًا . ها انَّ الروح تنسلُّ من الجسد وهو بنجوة من الألم . فاين غُصصك واين غمراتك يا موت ؟ ألمْ يا ربّ هذا الجسد فاني لا استحق ان أُنقل الى لذّات نعيمك بلا وجع . وقـال للغلام : هات يا بُنيَّ هذه المحبرة فاكتب كلمةً قبل الوفاة . فاتاه بها وبقصبة مروّسة ، وقال : أُمي . هل تموتين ؟ كيف تموتين . علّميني كيف اموتُ لنموتَ كلانا معًا . قال : ادنُ مني فاقبّلك ، فدنا فقبّلـه وضمّه الى صدره وكلّمه بصوتٍ

يرحمه لحنو والاسى : انت لا تموت اليوم وسوف يعلمك كيف تموت يسوع المسيح . ومتى كبرت تصير خادماً لمذابحه تلمس حلة جميلة وتقرب لابينا الذي في السموات ذبيحة ابنه يسوع . فكلما قربت تلك الذبيحة المقدسة التمس من الرب راحة وسلاماً لروح امك التي ربيتك وغرست في نفسك محبته ودربتك في رعية وصلاته . حينئذٍ قبض مارينوس القصبة وكتب على رقٍ وطوى الرق والقاه الى جانبه واحس بدنو الاحتضار . دب البردُ في قدميه واخذ يتغلغل في بدنه . قال : هوذا الروحُ تنسلُّ على مهلٍ ، ووضع يده على قلبه فقال : والقلب قد تاهز التلف ، اوجسَّ نبضه . فرأى انه على شفير التواري فقال : هوذا الدقيقة المشتهاة . وتناول صليباً من خشب الارز كان معلقاً بمنقه فقبله مرات والقاه على صدره وضمَّ جنبيه واسند ظهرهُ ورأسه الى وسادته الحجرية وجعل يناجي المسيح الذي شغف بحبه وحده طول ايام الحياة . قال : يا سيدي يسوع المسيح يا حبيب نفسي المنتقى من بين الوف . ما اجمل هذا الاكليل الذي في يدك يا مخلص العالم ودياًن الانام. ألامتك الوضيعة هذا الاكليل ، فاذا استحقيته يا الهي السخيّ ؟ ما ابهى هذه الغدراء الملتحفة بالجلالة والضياء ! ما ابدع هذا الموكب المحيط بالملك الازلي . طوبى لكِ يا نفسي فقد فزتِ بازيدَ مما ترجيتِ واشتهيتِ . فاخرجي من عالم الظلمة الى عالم النور بسلام . يا يسوع ومريم ويوسف المعظمين الى ايديكم الحنونة ألقي نفسي المسكينة بكل ركون . وفتح فاهُ ثلاثاً واسلم الروح .

ورأى الولد ان امَّه قد سكتت فنادى : أمي ! أمي لماذا سكتِ ؟ وهزَّها من كتفها فوجدها هادئة فظنَّها نائمة وجسَّ يدها فاذا هي باردة فتطاما خوفاً عليها من اذى البرد وقال ادفأي يا أمي ، ونامي بهدوء وراحة وهناء .

التفَّ على المغارة غمام من بخور حمل الهواء عرفه الذكي عابقاً بالوادي كأنَّ كل ما هنالك تحوَّل الى طيب . واعطت الاجراس طنيناً مفرحاً مصحوباً بطربات الانغام . فدُهش الرهبان مما جرى وجعلوا يتساءلون ما هذا العجب ! أجراسٌ تطنُّ ولا قارع ولا موعد ولا ميقات ! ما هذه الانغام المطربة يحملها الينا الهواء مضمخةً اذيالهُ بالطيب ! ومضوا جهة مهبِّ النسيم فانتهوا الى مغارة مارينوس ، فلمَّا رآهم الولد هرب من وجوههم الى اقصى المغارة .

دنا راهب من مارينوس وحدق في وجهه فرأى نضارة الحياة واشراق البهاء. فلم يشك في انه حيّ وظنه مغرقاً في سبات نوم هنيء. فناداه باسمه ثلاثاً فلم يجب فجسّه وهزهزه فاذا جثة هامدة فقال انه ميّتٌ، وهذا هو سرٌّ ما رأينا ومما من عجب. خرجنا لنعرف سببه، لقد وهبنا الله تدبيراً عظيماً. فالحجر الذي ردله البنّاؤون صار عمدة في الزاوية. يا لقوة التوبة لدى الله محب التائبين! ووقع نظر احدهم على الرقّ المطويّ فالتقطه ودفعه الى الرئيس قائلاً: هاك يا ابانا هذا الرقّ لتنظر ما ينطوي عليه فبسطه الرئيس واعاده الى الراهب ليقرأ ما كتب فيه على مسمع من الكل فقرأ ما يأتي:

انا احقر عبيد الله مارينوس راهب دير قنوبين أقصيتُ عن ديري بتهمة فحشاء رشقتني بها أسماء بنت كنعان رزق فلم أشأ ان ادفع التهمة بالحجة الدامغة مع قدرتي على دفعها بكلمة تسقط عن شفتيّ دون حاجة الى شهود وبيّنات فانني بنت عذراء. لا غلام كما صوّرت في وهم الجميع الى اليوم.

فبهت السامعون وتبادلوا العجب قائلين: مارينوس بنت عذراء! ما هذا الحادث الغريب! ومضى الراهب يقرأ بقية المكتوب واذان كلهم مرهفة للاصغاء: قرأ ما يلي: انخرطت في سلك الرهبان الرجال بإلهام من الله لشأنٍ من شؤون حكمته جلّ وعلا، وتنسّكتُ طائفة من الدهر بصحبة والدي المعروف بالأب مارون الاهدني، ومنذ صرتُ الى منفاي في هذا الكهف عكفتُ على عبادة الله بكل ما اوتيتُ من نسكه. وربّيتُ الولد الذي اتهمتُ بأني ابوه فغرست في قلبه محبة الله ومخافته وخلال البرّ والصلاح، وها انا اتركه إرثاً لاخوتي الرهبان ليتمّوا تثقيف عقله وتهذيب قلبه ويمكّنوه من دعوته المقدسة التي وجّهتُ ميلهُ اليها، وأسألهم ان لا يأخذهم الاسف لما حلّ بي من ضروب الشقاء. لانّ ما عانيته من شدائد النفي وما نالني من الخزي والعار والهوان، به حصلت لي الزلفة لدى سيدي يسوع المسيح الذي اخترته عريساً لنفسي، وها هو قد تكرّم باخراجي منقّاةً من كور الامتحان لينقلني الى سعادة الملكوت، لذلك أنسى ما ورائي واغفر لكل من ظنّ انه قد اساء اليّ كائناً من كان. وان كانت لي سيئة تجاه احد فليسمحها لي بيد المغفرة محبةً لله كما غفر الرب يسوع لجميع المقتدين بدمه الكريم.

فالى اللقاء. يا اخوتي الاعزاء. في مملكة السعادة وابدية .

فبدا الاسف في وجوههم وتساقطت من عيونهم الدموع واخذتهم الخشية فصمتوا واجمين .

ثم تكلم الرئيس قال :

الويلُ لنا يا اخوتي لقد رذلنا قديسة كبيرة وقضينا على بريئة قضاء ظالماً شديداً ، وغمسنا حياتنا بالمرائر والاوجاع تسرعاً في القضاء وجوراً . فلنجثُ حول جسدها المكرَّم ونغسل قدميها بدموع الندامة آسفين .

سلوا مني نفسها الطاهرة ان تغفر لنا خطيئتنا الجائرة وتشفع فينا لدى منبر الديّان الرهيب .

احملوا هذا الجسد النقيّ الى معبد الدير بكل اجلالٍ واحترام لنكفنه بالرحمة والدموع وندفنه مكرَّماً بجانب ابيه المأسوف على فضائله الجمّة الاب مارون . فيكون جسداهما ينبوعي بركةٍ كما ان نفسيهما لسانا شفاعةٍ في السماء .

فجثا جميعهم يصلّون ويلتمسون المغفرة من الله ، وفيهم ناسكٌ يُدعى جرمانوس جثا بجانب الجثمان وغطّى وجهه بكفّيه ورفع صوته بالبكاء واخذ يودّع الراحلة بهذا الكلام :

واعزيزتي مارينا وامهجة فريد ابن عمك المصدَّع الفؤاد . واحرَّ قلباه ! لقد كنتِ السبب لزهدي في الدنيا وتقيدي بخدمة الله راهباً في هذا الدير .

ويحي ! فكنتُ معصوب العينين ، إذن ! عشتُ معكِ عدة سنين وحادثتكِ وجالستكِ وآكلتكِ وصلينا معاً وتعاطينا اشغالنا الديرية متعاونين وحملتُ اليكِ الخبز مدى اربعة اعوامٍ اضعه على الصخرة المحاذية لكهفكِ المبارك ولا اراكِ ولا اكلمك ولا اعزّيكِ ولا اعرفكِ لان السلطة حرَّمت ذلك عليَّ . أي مارينوس اخي الذي احببته راهباً فوق ما احببته اختاً في دار والدينا المرحومين .

اذهبي بسلامٍ وسيجمع اللهُ بين روحينا بمحبةٍ طاهرة خالدة واتحادٍ نقيّ لا يرتق صافيه خوفُ الانفصال .

وبينما هم في هذا الشأن دخل اليهم كنعان رزق بغتةً وقال :

يموتُ الصدّيق مُهاناً ويُدفن مكرّماً .

أبى الله ان تُدفن هذه البارّة قبل ان يُعلن برُّها على الملا .

لقد كنتُ احسبها رجلاً كما كنتم تتوهمون ، فصدّقتُ تهمة ابنتي فضللتُ ، فلمّا تكشّف لي الحقّ ندمتُ واستغفرت .

والآن إراحةً لضميري واستناداً الى اقرار ابنتي الاخير البعيد عن الكذب والمفرغ في قالب الصراحة والوضوح . اوضح حقيقة الواقع لكم وللتاريخ .

احبّت ابنتي مارينوس لجمال صورته وحمايتها الوقاحة على مراودته فحمل عليها بقسوة الصدّ والتوبيخ فحنقت منه وحملت حقداً عليه ثمّ وقع لها الحنا مع شابّ متشرّد فلما انكشف سترها ، اتهمت مارينوس تشفياً ، فاخذنا بقولها فكان ما كان .

فيا ايتها القديسة المكرّمة أبت فضيلتك ان تأذن لي بهذا الايضاح لتبرئتك وانتِ في قيد الحياة فاغفري لي ولابنتي التائبة واستدي لنا نعمة الخلاص الابدي .

وحضر سمعان كاهن القرية التي يسكنها كنعان وصاح :

الصفحَ الصفحَ يا قديسة الله ، فانّ الرب منتقمٌ لكِ من قريتنا بخطيئة واحدٍ من اهلها .

اشعل سخط الرب ناراً حول القرية تلتهم الاخضر واليابس .

والريح تسوق اللهب جهة البيوت والخطر فاغرٌ فاه متحفزٌ للوثوب وانا كاهن القرية اتيتُ استعطفُ قلبكِ للغفران .

وأيُّها النسّاك الاتقياء ارشقوا شفاعتكم نحو السماء .

فدفع اليه الرئيس رداء القديسة وقال :

لوّح بهذا الرداء جهة القرية يكفّ الغضب وتطفأ النار وتسلم البيوت وقشة من محتوياتها لا تحترق .

فخرج الكاهن بالرداء. وصنع بحسب الكلام الذي قاله له الوثيس وما عتم ان رجع فقال :

هنا قوة الله .

ما كدت انشر هذا الرداء المبارك حتى تراجعت النار عن القرية وطفأت واتحت آثارها كنور شمعة تطفأ بنفخة فمك .

ما اعظم شفاعة القديسين وما اعجب ما يجري الله على ايديهم من معجزات .

حينئذٍ تعالت من افواه الجمهور اصوات التهليل والهتاف :

تمجَّد الله في قديسيه فلتحيَ القديسة مارينا في تاريخ النسَّاك مدى الاجيال وفي مقرّ السعادة والخلود في مملكة السيد المسيح الذي ليس لملكه انقضاء .